صحائف

من نهج البلاغة

القسم الأول

صحيفة الأحداث العسكرية

محمّد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي

الطبعة الأولى

منشورات دار الوفاق – النجف الأشرف

مطبعة الجاحظ - بغداد

المقدّمة

ما ظننتني أستطيع في يوم من الأيام أن أصيب توفيقاً من عند الله تعالى فاهتدي إلى ما يجعلني قادراً على ان اقتضب من كتاب (نهج البلاغة) أبعاضاً متمايزة في نسقها وفي طبيعتها من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) ما أعلنه في أوقات موضونة متوسمة، وقد آثرت أن أدعو بعضها الأول بـ (صحيفة الأحداث العسكرية) من جراء شمولها على المساعي العسكرية التي عاناها وخاض غمارها أمير المؤمنين (عليه السلام) حفظا أثيراً للوحدة الإسلامية وتشهيراً فاضحاً بذوي المطامع الأنفصالية عنها.

وها أنا ذا أعرض ها هنا قسمها الأول الذي دعوته بصحيفة الأحداث العسكرية من كتاب نهج البلاغة. طامحاً أصدق طموح لدى أخواني القراء إلى تغاضيهم عما عسى أن يروني قد غفلت عنه وقصرت فيه من جملة وتفصيل والله ولي التوفيق والثواب.

النجف الأشرف

محمّد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي

ص 4

كانت مكة المكرمة تتعرض في بعض الأعوام السالفة للجدب العسير عندما كانت السماء تمسك عن سخائها وبركتها لأنماء الزروع فتترك القبائل في بأساء وضراء لا يملكون لأنفسهم غير اليسير من ذريعة العيش.

وفي سنة من تلك السنين أصيبت قريش كأكثر الناس في مكة بقحط شامل، فانطلق رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) إلى مواجهة عميه... حمزة والعباس، واقترح عليهما أن يذهبا معاً ليخففا عن أبي طالب بعض ما يجهده من تكاليف ضرورية لمعيشة أبنائه. فلما ذهبوا جميعاً إليه قال لهم دعوا لي... عقيلاً. وخذوا من شئتم، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفرا، وأخذ محمّد بن عبد الله (عليّاً).

وكان عليّ يومذاك في حجر الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) يكلؤه برعايته الفذة منذ كان عمره ست سنين ويشمله بكل عطف وكل هداية اجتماعية في حين كان هو نفسه ذا مواهب خصيبة ومدارك زاكية تستوعب في (مجالس عميه) وشيوخ قومه كل نخبة من الجد العقلي. وكل حديث بليغ صالح.

ولما بلغ العاشرة من عمره تقدم من تلقاء نفسه فحقق إسلامه على يد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) لأنه كان قد بلغ في ذلك الوقت من ادراكه الناضح المميز بين كثير من حقائق الوجود انه صار يرفض بوعاية عقله أن يؤمن كالمشركين بأن الأصنام الحجرية المنحوتة بأيدي النحاتين وبأيدي الصاغة هي ألهة مقدسة وانها قمينة بالتجلة والعبادة لكونها عندهم ترزق البشر وتسبغ على حياتهم كل ضروب البركات.

ص 5

فما أسخف عقيدتهم هذه حين كانوا يزعمون أن أساف ونائلة واللات ، والعزى، وهبل، وسواع، ومناة، والفلس وغيرها من الأصنام أرباب حجرية مقدسة ومسيطرة على نظم الحياة البشرية وعلى عواقب شؤونهم وأحوالهم في أناء الليل وأطراف النهار.

هذه ظاهرة اعتقادية شاذة كانت من جهة متوارثة بينهم على غير تحقيق منهم في سجيتها. وكانت راسخة في عقولهم فيؤكدونها بلا تمحيص وانتباه.

ولكن الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كان يشهدها بعينيه ويفكر في طبيعتها ويعجب منها ويشفأها ويعيبها في داخل نفسه ويبغضها بغضاً لن يتضاءل فيه أي ضئالة.

وأمّا من جهة أخرى فقد كان موقناً بأن شريعة المشركين الإجتماعية منكرة عند الراسخين في الإدراك. وان تضرعهم للأصنام وإيمانهم بجلالتها وهي في حقيقتها أحجار لا تصلح إلاّ للبناء في بيوتهم هي مجردة من كل حس ومن كل خصلة شعورية قمينة بأن تعلنها في يوم من الأيام لحادثة نافعة لهم أو مضرة بهم قط.

ذلك هو فرط الذكاء في الإنسان الرشيد بالطبع، والنابغ نبوغه المبكر يجعل صاحبه عبقرياً فياض التفكير والتعبير يبشر بمستقبل زمني بليغ مثلما صار شأن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) منذ أوائل عمره إلى أواخر عمره مخلداً في خلالها إلى ما وراءها أصداء نبوغه وأطوار شرافتها في كتاب نهج البلاغة.

وكتاب نهج البلاغة يمثل في شطر واسع من معانيه ومبانيه بعض الاستمرار السياسي والاعتقادي في أضواء الرسالة الإسلامية في أذهان الوعاة من الناس، لأنه ينحو بهم نحواً حصيفاً وراء القرآن الكريم. ويسلك معهم سلوك التابع للمتبوع في داخل بلاد الإسلام من أجل الأنتفاع بما يشمل

عليه من هدى وسداد لأثقف الحكام وأظرف المحكومين من الأمم على سطوح الأرض.

وقوام نهج البلاغة الثابت الآن ككتاب أثير في جملته وتفصيله كان محفوظاً في صدور المسلمين وأذهانهم، وفي بعض ما كان حاصلاً لديهم من رسائل الكتابة التاريخية، إذ كانوا يتوارثون حفظها اهتماماً بما كانوا يجدون فيها من حكم ومواعظ ومراشد سياسية واجتهادات حربية أو سلمية، ولكنها ظلت في زمان الدولة الأموية مكبوتة عن الذيوع بين ذوي الاهتمام وغير ذوي الأهتمام بمصائر المسلمين أينما كانوا حتى إذا ما انقرضت الدولة الأموية من وجودها الحاكم في الشام وفيما وراء الشام وقامت الدولة العباسية على أثرها في بغداد وفيما وراء بغداد انتعشت مواهب الناس الأدبية والعلمية متجهة نحو التزود من العلوم والآداب التي أنشأت تنتشر أحدث انتشار بينهم في القرى والحواضر العربية والتي تظافرت في الحداثة والانتشار مع العلوم والآداب الواردة إليها من غير البلاد العربية فتمزج معها وتعرب عن حيويتها وقابليتها للخلود والبقاء. حينذاك، وحينذاك بالتعيين كان العالم المقدام (الشريف الرضي) رحمه الله في مقدّمة العلماء الأفذاذ حياً بين أكرم الأحياء، وكان يتصدر مع أنشط المتصدرين النهضة العباسية الأدبية التي بدأت تستعلن في الأقطار الإسلامية وتستلفت رقاب الأمم نحو بغداد عاصمة الأمبراطورية الإسلامية. ولم يكن نتاجه العلمي والأدبي مقتصراً على ما كان يجود به نبوغه الديني الذاتي المتدفق، وإنما انصرف بنبوغه كذلك إلى الاستئناس

بمنتجات غيره من فحول القادة العلماء كعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) نتاجاً متفرعاً شاملاً في الحكمة والأدب والعلم والاقتصاد والموعظة الحسنة والمراشد السياسية العادلة في الحكم والقضاء

ص 7

والتشريع المنزه من الاستبداد أو الطموع وقد كان العلاّمة الشريف الرضي رحمه الله منذ ابتداء شغفه الناتج، واكبابه الرائع على مواصلة اعجابه بهوايات الأسفار الدينية وجدواها واستيعاب ما فيها من أحكام خالدة واجتهادات وشروح باهرة وتلذذ مواهبه الذواقة بها.. كان يكب كذلك على مطالعة الكتب اللغوية وآدابها المنظومة والمنثورة ويعالج بجدارة انشازها وعجراتها ويتقصى أخبار الشعراء والخطباء سواء أكانوا من القدامى أم المحدثين فيرى في غضونها فضائل متنوعة من أقوال الإمام (عليّ بن أبي طالب) ورسائله وخطبه الشاملة في أغراض شتى ومعاريض استشهادية جمة فينقاد لها ويعشق محاسنها ويتصاغر متضائلاً أمام فصاحتها وبلاغتها حتى لقد حمله تأثره الحازم فيها واتساع هواه نحوها على أن يتطوع أخيراً لجمع ما يتيسر له جمعه من تلك الخطب والرسائل والأقوال الحكيمة والأقضية الشرعية البارعة من شتى كتب الرواة المحققين وكتب المؤرخين الكبار.

فماذا كان بعد ذلك؟

لقد أضحى تطوع (الشريف الرضي) السالف ذكره حقيقة واقعة مشهودة أمام الأبصار في كتاب جد نفيس قد جمعه لأثقف الناس عقولاً وأصدقهم اعجاباً بالروائع العربية الخالدة والقرائح المرشدة والمسددة إلى معاريض الخير والبشري العام في الدنيا.

ان كتاب نهج البلاغة حافل كامل بضروب من الفوائد السياسية والشروح الفقهية أو القضائية مع التوجيهات الأسرية الرائعة والتبصر في الأسرار العسكرية ومحاسن الحياة المدنية في الأسواق التجارية والصناعية وإرشادات خلقية لمحامد الحضور في مجالس العلماء والأدباء وايثار الخيرات الصناعية والتجارية جميعها وتحذيرات الناس من عواقب المعاداة السلالية بين

ص 8

الأسرات والقبائل. وأيضا بث الدعوات الجليلة إلى ايثار السجايا الإسلامية على ما سواها في التعاضد والمناصحة والانسجام النزيه بين سائر المجتمعات أينما تكون من المسكونة.

ولعل رجلاً مسلماً أي رجل مسلم يتطوع في الأوقات الحالية ليستبطن باخلاص وحياء جميع هذه الأمور الواردة في كتاب نهج البلاغة ويبحث عن دواعي إيرادها من لدن (عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)) بشخصه على

رؤوس الأشهاد سواء أكان تصريحاً أم تلميحاً يظفر من غير مراء بصور دقيقة جداً وحوادث متباينة لأحوال الكثيرين من رؤساء القبائل وغيرهم فيأسف لوقوعها منهم وبينهم وأصبحت كنتيجة غير مفاجئة من جراء الخلاف الانتهازي الذي أحدثه معاوية بن أبي سفيان تجاه الخليفة الشرعي يومذاك واصطناعه المبررات للمطالبة بدم الخليفة (عثمان بن عفان) واستمالة القبائل والأسرات إليه ضمنا بأساليب شبحية وغير مشروعة في مستوجبات أو مستحبات الدين الإسلامي لتزكية مزاعمه ولتوكيد مطالبته بدم عثمان بن عفان من إمام مسلم بريء حقاً ظاهراً وباطناً من المشاركة في مقتله. وجذير بالذكر على كل حق واحتمال ان هذا الخليفة البريء الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كان قد أسبغ على وجود عثمان بن عفان عطفاً جريئاً ومهما في خلال الفتنة أو الثورة على عثمان بن عفان نفسه حتى أنه أرسل ولديه الحسن والحسين (عليهما السلام) تحقيقاً لعطفه ذلك إلى دار الخليفة لكي يقفا بثبات مع فريق المدافعين عنه ولتبصير الثائرين بكراهة أبيهما وسخطه المكتوم وغير المكتوم على أي اعتداء جرمي قد يحاولون انزاله به. على حين كان ثمة اناس كثيرون من القبائل في مدينة يثرب حاضرين يشاهدون بهدوء على سوانح أعمال المتخاصمين فيها، فأخرج مقصد الثائرين احراجاً شديداً في أيديهم ولم

يعودوا يجدون سبيلاً ممهداً لهم إلى داخل دار الخليفة إلاّ من سوره الخلفي فتسورا من فوقه إلى غرفة الخليفة من غير أن يشهد واقع مقتله من ذوي قرباه إلاّ زوجته (نائلة بنت الفرافصة) التي دافعت عنه بكل ما أتيح لها من إمكان في وقت مقتله.

وهاهنا ينبغي لنا التوكيد على ان الإمام عليّ بن أبي طالب لو كان قاتلاً بيده عثمان بن عفان أو أمر بقتله لصار عند المسلمين في عداد القتلة المجرمين، وأيضاً لو كان ناهياً عن قتله بلسانه الناطق المهدد على مسامع الناس لصار في عداد المؤيدين المناصرين له ولأعماله التي دانه بها الثائرون عليه، ولكنه كان بريئاً جداً من كل ذلك إطلاقاً، بل كان في أثناء ذلك الوقت يعاني الحيرة واشتداد العجب في نفسه من كثير من التهويشات الأهوائية ومساعي مروان بن الحكم لضمان مستقبله المنشود عنده، في تنفيذ مطامعه السياسية ليضارع سلوك (معاوية بن أبي سفيان) في الشام خاصة إذا ما أصاب نجاحاً ما في دس الانشقاق بين الهاشميين والأمويين وأنصارهما وما إلى هذه المصائب والمطامع من نظير وسبيل.

لقد كان الثائرون على عثمان بن عفان يتهامسون عليه في تلك الاباء مع الناس الآخرين ويصارحونهم تارة أخرى بأمور غير سائغة قد وقعت منه في انفاقه الأموال العامة اعتباطاً واختيار فئة من غير المستحقين

لمناصب الحكم في بعض البلاد وتأمير بني أمية على غيرهم من القبائل في تمثيله بينهم وثوقاً بأخلاصهم لمقامه الرفيع وغير هذه من أمور يأباها مركز الخلافة.

ولقد لقى وقتذاك جماعة من المصريين الذين كانوا قد جاءوا إلى يثرب (عليّ بن أبي طالب) متقلداً سيفه عند أحجار الزيت قرب المدينة المنورة فسلموا عليه وعرضوا عليه ولاءهم وأمرهم.

- فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون ان جيش – المروة

وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) (1).

فانصرفوا عنه خائبين.

وقبيل مقتل (عثمان بن عفان) – اقبل عليّ وطلحة والزبير فدخلوا معاً على عثمان يعودونه، ويشكون إليه ما يجدون من أجله وكان عند عثمان نفر من بني أمية منهم (مروان بن الحكم) فقالوا لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام): (أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت والله ان بلغت هذا الأمر الذي تريده لتمر عليك الدنيا) فقام مغضباً وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم(2) وفي آخر خطبة خطبها عثمان بن عفان وأعطى الناس من نفسه التوبة وقال لهم: أنا أول من اتعظ واستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه فمثلى نزع وتاب. فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليرون رأيهم، وليذكر كل واحد ظلالته لأكشفها وحاجته لأقضيها، ولما نزل وجد مروان بن الحكم وسوراً ونفراً من بني أمية في منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته ولكنها بلغتهم، فلما جلس ليستريح قال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين أأتكلم أم أسكت فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان لا بل تسكت فوالله أنتم قاتلوه، وميتموا أطفاله، انه قد قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها فقال مروان بن الحكم: وما أنت وذاك، والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ. فقالت مهلاً يا مروان عن ذكر أبي إلاّ بخير والله لولا ان أباك عم عثمان – وانه ينال غمه وعيبه لأخبرتك من أمره بما لا أكذب فيه عليه. فأعرض عثمان حينذاك عن مروان(3). وروى أبو

جعفر الطبري ان عليّ بن أبي طالب كان خارجاً إلى ماله في (خيبر) لما حصر عثمان، فقدم إلى المدينة والناس مجتمعون على طلحة وكان لطلحة في حصار عثمان أثر واضح. فلما قدم عليّ (عليه السلام) أتاه عثمان وقال له: أمّا بعد فإن لي حق الإسلام وحق الإخاء والقرابة والصهر ولو لم يكن من ذلك شيء وكنا في جاهلية لكان عاراً على عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم – يعني طلحة فقال له عليّ (عليه السلام) أنا أكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار – طلحة – وهي مملوءة بالناس فقال له يا طلحة ما هذا الأمر الذي صنعت بعثمان؟

قال: يا أبا الحسن أبعد أن مس الحزام الطيبين!! فانصرف عليّ (عليه السلام) حتى أتى بيت المال فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح فكسر الباب وفرق ما فيه من مال على الناس فانصرف الناس من عند طلحة، حتى بقي وحده وسر عثمان بذلك(4).

وجاء طلحة فدخل على عثمان فقال له، يا أمير المؤمنين إنّي أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً. فقال عثمان والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً. حسبي الله يا طلحة.

ثم قال الطبري كان عثمان مستضعفاً طمع فيه الناس، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بني أمية عليه(5)، وكان ابتداء الجرأة عليه. ان ابلا من ابل الصدقة جيىء بها إليه، فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبي العاص دون سواهم . فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها

بين الناس وعثمان في داره. فكان ذلك أول وهن دخل على خلافة عثمان بن عفان، وقيل انه خطب يوماً وبيده عصا كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وأبو بكر وعمر يخطبون عليها. فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبتيه، فلما تكاثرت أحداثه وتكاثر طمع الناس فيه كتب جمع أهل المدينة من الصحابة وغيرهم إلى من بالآفاق من المسلمين، أنكم كنتم تريدون الجهاد فهلموا إلينا فإن دين محمّد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه، فاختلفت عليه القلوب، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث. أمّا مروان بن الحكم بن أبي أمية بن عبد شمس. فقد كان قد خرج من المدينة إلى الطائف مع أبيه (الحكم) بعدما طرده رسول الله إليها من جراء استخفافه به ومحاكاته له في مشيته وحركات يده حتى كان يشير النبي في الطرق وحده أو مع بعض المسلمين. وكان بلا ريب مناوئاً وشانئاً وحاسداً لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فضلاً عن انه كان يبغضه وينفث مثال بغضه في أبنائه منذ صغر أسنانهم وبقي على هذا الغرار حتى عاد إلى المدينة من

طرده بعدما انتخب عثمان بن عفان خليفة على المسلمين عقيب وفاة عمر بن الخطاب، وبدأ مروان بن الحكم يطمح من يومذاك إلى منصب الخلافة تعويضاً نفسياً عما يشعر به من ضئالة اجتماعية ما بين الناس بعدما طرد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) إياه إلى الطائف وهو معه.

ولما رجع مروان بن الحكم مع أبيه إلى المدينة بموافقة عثمان بن عفان اتفق ذات يوم أن نظر إليه عليّ بن أبي طالب، اتفاقاً فقال له كما يروي ذلك صاحب كتاب الاستيعاب: ويل لك ويل لأمة محمّد منك ومن بنيك إذا شاب صدغاك.

وروى الواقدي والمدائني والكلبي وغيرهم من المؤرخين ان عليّاً (عليه السلام) لما أرجع المصريين إلى بلادهم خرجوا من المدينة ثم رجعوا إليها بعد

ثلاثة أيام. فأخرجوا صحيفة في انبوبة رصاص وقالوا وجدنا غلام عثمان بن عفان وهو أبو الأعور السلمي في البويب(6) على بعير من ابل الصدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيفة وفيها أمر صريح من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن حمق الخزاعي وحلق رأسيهما ولحاهما وحبسهما وصلب قوم آخرين من أهل مصر.

وجاء الناس إلى عليّ بن أبي طالب وسألوه أن يدخل إلى عثمان بن عفان فيسأله عن هذه الحال فلم يجد بدا من الدخول عليه. فأقسم بالله ما كتبته ولا علمته ولا أمرت به فقال محمّد بن مسلمة وكان حاضرا صدق. هذا من مروان بن الحكم فقال: لا أدري، وكان أولئك المصريون في ذلك الوقت حضروا فقالوا له: أفيجرأ عليك ويبعث غلامك على جمل من ابل الصدقة وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تدري؟

قال: نعم، قالوا: انك أمّا صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت من قتلنا وعقوبتنا من غير حق ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته وخبث بطانته. فأخلع نفسك منه فقال عثمان إني لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكني أتوب. قالوا لو كان هذا أول ذنب نبت منه لقبلنا. ولكنا رأيناك تتوب. ثم تعود ولسنا بمنصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله فقال: أما ان ابرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلى نفسي من ذلك، وأمّا قتالكم من يمنع عني فإني لا آمر أحداً بقتالكم فمن قاتلكم فبغير أمري. ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا عليَّ أو لحقت ببعض الأطراف.

ثم بدأ السر يتسع بين الناس (واصح ما ذكر في ذلك ما أورده أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري في التاريخ، وخلاصة ذلك ان عثمان أحدث أحداثاً مشهورة نقمها الناس عليه من تأمير بني أمية. ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين واخراج مال الفيىء إليهم وما جرى في أمر عمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود وغير ذلك من الأمور التي جرت في أواخر خلافته ثم اتفق ان الوليد بن عقبة لما كان متولياً على الكوفة وشهد عليه بشرب الخمر صرفه وولى سعيد بن العاص – مكانه – فقدم سعيد الكوفة واستخلص قوماً من أهلها يسمرون عنده ويقضون أوقاتهم هباء فقال سعيد بن العاص انّ السواد بستان لقريش وبني أمية فقال الأشتر النخعي وتزعم ان السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك!! فقال صاحب شرطته وكان حاضراً: أترد على الأمير مقالته؟ وأغلظ له فقال الأشتر لمن حوله من النخع، وغيرهم من أشراف الكوفة: ألا تسمعون؟ فوثبوا على صاحب الشرطة بحضرة سعيد بن العاص فوطئوه وطئاً عنيفاً وجروا ببرجله، فغلظ ذلك على سعيد وأبعد سماره، ولم يأذن بعد لهم. فجعلوا يشتمون سعيد بن العاص في مجالسهم. ثم تعدوا ذلك إلى شتم عثمان بن عفان لاعتماده على سعيد ، واجتمع إليهم ناس كثير حتى غلظ أمرهم، فكتب سعيد إلى عثمان بشأنهم فكتب إليه عثمان أن يسيرهم إلى الشام لئلا يفسدوا أهل الكوفة، ان نفراً من أهل الكوفة قد هموا باثارة الفتنة وقد سيرتهم إليك فإن أنت منهم رشداً فأحسن إليهم فارددهم إلى بلادهم. وروى أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ان سعيد بن العاص قدم على عثمان سنة احدى عشرة من سني خلافته، فلما دخل المدينة اجتمع قوم من الصحابة

فذكروا سعيداً وأعماله وذكروا قرابات عثمان وما سوغهم وأباح لهم من أموال المسلمين وعابوا أفعال عثمان فأرسلوا إليه عامر بن عبد القيس، وهو من بني تميم فدخل على عثمان فقال له: ان اناساً من الصحابة اجتمعوا ونظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً. فاتق الله حق تقاته وتب إليه. فقال عثمان لمن حوله: انظروا إلى هذا تزعم الناس انه قارئ ثم يجيىء هو إليَّ فيكلمني فيما لا يعلمه، والله ما تدري أين الله؟ فقال له عامر بن عبد القيس: بلى والله إني أدري ان الله لبالمرصاد. فأخرجه عثمان عنه وأرسل إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإلى معاوية وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وعبيد الله بن عامر، وكان قد استقدم الأمراء من أعمالهم فشاورهم، وقال : ان لكل أمير وزراء ونصحاء وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي(7).

وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل أعمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون، فاجتهدوا رأيكم؟ فقال عبد الله بن عامر: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلوا لك ولا تكون همة أحدهم إلاّ في نفسه وما هو دبر دابته وقمل فروته.

وقال سعيد بن العاص: أحسم عنك الداء. وأقطع عنك الذي تخاف ان لكل قوم قادة، حتى يهلكوا يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر فقال عثمان، ان هذا لهو الرأي لولا ما فيه.

وقال معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، فأنا أكفيك أهل الشام.

وقال عبد الله بن سعد: ان الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال

تعطف عليك قلوبهم.

فقال عمر بن العاص: يا أمير المؤمنين، انك قد ركبت الناس ببني أمية فقلت وقالوا. وزغت وزاغوا. فاعتدل واعتزل فإن أبيت فاعزم عزماً وأمضي قدما.

فقال له عثمان. ما لك قمل فروك أهذا يجد منك؟

فسكت عمرو حتى تفرقوا ثم قال: يا أمير المؤمنين : لأنت أكرم عليَّ من ذلك ولكن علمت ان بالباب من يبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي، فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شراً.

فرد عثمان عماله إلى أعمالهم وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث وعزم على أن يحرمهم أعطياتهم ليطيعوه(8).

ورد سعيد بن العاص إلى الكوفة، فتلقاه أهلها بالجرعة(9) وكانوا قد كرهوا أمارته وذموا سيرته فقال له: ارجع إلى صاحبك فلا حاجة لنا فيك، فهم بأن يمضي لوجهه ولا يرجع، فكثر الناس عليه فقال له قائل منهم ما هذا؟ أترد السيل عن أدراجه؟ والله لا يسكن الغوغاء إلاّ المشرفية ويوشك تنتضى بعد اليوم. ثم يتمنون ما هم اليوم فيه فلا يرد عليهم. فارجع إلى المدينة فإن الكوفة ليست لك بدار(10).

لقد كان هذا الاجتماع خائباً بين الخليفة عثمان بن عفان وبين رؤساء الأعمال الأدارية الإسلامية لأنهم منذ حضروا إلى المدينة أحيطوا علماً قبل الاجتماع بكل الأحوال السياسية التي يعاني منها الخليفة في داخل المدينة وخارجها. فاعدوا لها من غير شك حلولا اقناعية وانتهازية ولما اكتمل

اجتماعهم وعرفوا ان مناصبهم معرضة لكثير من المخاطر عرضوا على عثمان بن عفان حلولاً رجراجة. ترضي مطامعهم المالية وتضمن بقاءهم في مناصبهم وتهيىء لهم فرصة التصرف في قمع الناس ولا سيما المعارضين منهم لسياستهم الأدارية.

ثم انتقى عثمان بن عفان (أبا موسى الأشعري) أميراً على أهل الكوفة وكتب إليهم. أما بعد فقد أرسلت إليكم أبا موسى الأشعري أميراً واعفيتكم من سعيد بن العاص ووالله لأقوضنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولاستصلحنكم جهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصي الله فيه إلاّ ما سألتموه ولا شيئاً كرهتموه لا يعصي الله فيه إلاّ استعفيتم منه لأكون فيه عندما أحببتم وكرهتم حتى لا يكون لكم على الله حجة والله لتصبرن كما أمرنا وسيجزي الصابرين(11). وكتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم سراً ويأمرهم بالعجل والبدار وارسال الجنود إليه فتربص به معاوية(12) فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري فتبعه خلق كثير فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القرى، بلغهم قتل عثمان فرجعوا لأنهم تأخروا عن أنجاده. وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السلمي فلما وصلوا إلى (قرية الربذة) (13) ونزلت مقدمتهم في الموضع المسمى (صرار) في ناحية المدينة آتاهم خبر قتل عثمان فرجعوا(14).

قال أبو جعفر الطبري ان محاصري عثمان كانوا قد أشفقوا من وصول أجناد من الشام والبصرة تمنعه، فحالوا بين عثمان والناس ومنعوه كل شيء حتى الماء فأرسل عثمان سراً إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وإلى أزواج النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) انه قد منعونا الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا. فجاء عليّ بن أبي طالب في الغلس وأم حبيبة بنت أبي سفيان فوقف عليّ (عليه السلام) على الناس فوعظهم قائلاً: أيها الناس ان الذي تفعلون لا يشبه أمر أمير المؤمنين ولا أمر الكافرين، ان فارس والروم لتأسر فتطعم وتسقي فالله ، الله.. لا تقطعوا الماء عن الرجل. فأغلظوا له القول. وقالوا: لا نعم ولا نغمة عين قلما رأى منهم الجد والعناد نزع عمامته عن رأسه ورمي بها إلى دار عثمان يعلمه انه قد نهض وعاد يائساً من غوغاء الثائرين وأما أم حبيبة وكانت مشتملة على أداوة فضربوا وجه بغلتها فقالت ان وصايا أيتام بني أمية عند هذا الرجل فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال اليتامى فشتموها وقالوا أنت كاذبة وقطعوا حبل البغلة بالسيف(15). فتفرقت وكادت تسقط عنها فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها.

قال أبو جعفر الطبري: فلما طال الأمر وعلم المصريون انهم قد أجرموا جرماً كجرم القتل وانه لا فرق بين قتله وما أتوا إليه وخافوا على أنفسهم من تركه حياً، راموا الدخول عليه من باب داره فأغلقت الباب ووقف الحسن

بن عليّ بن أبي طالب (عليهما السلام) في صدورهم وأعانه على وقفته هذه عبد الله بن الزبير ومحمّد بن طلحة. ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وجماعة من أبناء الأنصار فزجرهم عثمان وقال أنتم في حل من نصرتي. فأبوا ولم

يرجعوا، ولم يتقدم غيرهم للدفاع عنه من بني أمية ومن أقارب الآخرين.

وقام في خلال تلك الأثناء رجل من بني أسلم يقال له (نيار بن عياض) وكان من صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فنادى عثمان وأمره أن يخلع نفسه وبينما هو يناشده ويسومه خلع نفسه رماه (كثير بن الصلت الكندي) وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار بسهم فقتله فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك: ادفعوا إلينا ابن عياض لنقتله به فقال عثمان، لم أكن لأدفع إليكم رجلاً نصرني، وأنتم تريدون قتلي.

فثاروا إلى الباب فأغلق دونهم فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السقيفة التي عليها، فقال لمن عنده من أنصاره: ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) عهد إليَّ عهداً فأنا صابر عليه ثم قال للحسن بن عليّ (عليهما السلام) ان أباك الآن لفي أمر عظيم من أجلك فاخرج إليه أقسمت عليك لما خرجت إليه؟ فلم يفعل إذ كان يدافع عن خليفة وقته، ووقف محامياً عنه. ولما سمع مروان بن الحكم ذلك من الحسن بن عليّ (عليهما السلام) داخلته الحماسة. وخرج بسيفه يجالد الناس فضربه رجل من بني ليث على رقبته فأثبته وقطع احدى عليّاًويه العصبتين. فعاش مروان بقية حياته أوقص الرقبة وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي يجهز عليه فقامت دونه فاطمة أم إبراهيم بن عدي وكانت أرضعت مروان فقالت له ان كنت تريد قتله فقد قتل. وإن كنت إنما تريد أن تعبث بلحمه فأقبح بذلك فخجل وتركه فخلصته وأدخلته بيتها(16).

وقتل المغيرة بن الأخنس بن شريق وهو يحامي عن عثمان بالسيف، واقتحم الثائرون الدار، ودخل كثير منهم الدور المجاورة لها وتسوروا من

دار (عمرو بن حزم) إليها حتى ملئوها وغلب الناس على عثمان فدخل محمّد بن أبي بكر فقال له عثمان: ويحك أعلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم؟ إلا اني أخذت حق الله منك؟ فقال أما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان؟ فقال استنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج.

فثار حينئذ رجل اسمه (سودان بن حمران) وأبو حرب الغافقي وقتيرة بن وهب السكسكي فضرب الغافقي بعمود كان في يده وضرب المصحف برجله في حجر عثمان فسال عليه الدم وجاء سودان بن حمران ليضربه

بالسيف فأكبت عليه امرأته (نائلة بنت الفرافصة) الكلبية واتقت السيف بيدها فنفح أصابعها فقطعها فنزل السيف على عثمان بن عفان فقتله، فدخل غلمان عثمان ومواليه عليه فوجدوه قتيلاً فقتلوا سودان بن حمران فوثب قتيرة بن وهب على ذلك الغلام فقتله فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله ونهبت دار عثمان وسلبوا ما كان على النساء ونهبوا غرارتين من الدراهم. وأقبل عمير بن ضابي البرجم. فوثب عليه وكسر ضعلين من أضلاعه وقال: سجنت أبي حتى مات في السجن(17).

ولقد أجمع المؤرخون المعتمدون على ان مقتله كان في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وبقي جثمانه مطروحاً أرضاً لم يدفن مدى ثلاثة أيام إلى أن جاء (حكيم بن حزام وجبير بن مطعم) إلى عليّ بن أبي طالب في داره فوجداه مستعيراً فأستغراه للخروج معهما ليدفنوا الجثمان معاً. فإن وجوده معهما في غضون التشيع وازع ورادع لأعداء عثمان وقتذاك، فنهض عليّ بن أبي طالب متقلداً سيفه ومن حوله الحسن

والحسين والزبير وحكيم بن حزام وجبير بن مطعم، فلما سمع فريق من أعداء عثمان بذلك قعدوا في الطريق بالحجارة فلم يكترث لهم المشيعون ولا اهتموا بجمعهم إذا كان معهم عليّ بن أبي طالب ومن وراءه بقية المشيعين. فأحسن عليّ بن أبي طالب ببعض الحجارة ترمى نحو الجنازة فأمر المشيعين بالوقوف ثم أرسل ابنه الحسن إلى رماة الحجارة ليمتنعوا عن الرمي، ثم ساروا مستأنفين حتى بلغوا حائطاً من حيطان المدينة قرب البقيع يعرف عند الناس باسم حش كوكب(18).

فأنزلوا الجنازة أرضاً وصلّى عليها الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ومرافقوه قبل الفجر ثم واروها في التراب مع ما كان عليها من ملابس ملوثة بالدم، وعادوا جميعاً إلى منازلهم أما أكثر أقرباء الخليفة القتيل مع أخص خصائصه المقربين إليه فقد لبثوا في بيوتهم قاعدين متخاذلين ولم يغادروا ويتشجعوا على الخروج بأسلحتهم لدفن الخليفة القتيل الذي كانوا يستفيدون من وجوده بينهم في أيام حياته. أما انّه وبعد ما مضى عنهم إلى رحمة الله تعالى، فصاروا يفكرون من جديد فيمن عسى أن يخلفه في منصب الخلافة؟ وكيف يتيسر لهم ترشيحه في تلكم الأوقات غير المستقرة الخطرة في معظم الأصقاع.

أمّا عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقد عاد إلى داره مع ولديه الحسن والحسين بعد اضطلاعه بأداء شعائر الدفن وهو يفكر باكتآب واضطراب في شتى مصائر المسلمين في بلادهم خاصة، بعد شعورها من خليفة قائم يتولى بحزم ادارة شؤونهم بتمام الروية والحياد بأصدق ما يملك من الحيطة والتقوى، وماذا

عسى أن تصير إليه أحوالهم الإجتماعية والسياسية والمالية بعد ذلك اليوم إذا ما اختلفوا في مسالكهم فتحزبوا أحزاباً عشائرية وتكتلوا تكتلات دنيوية مع ما عند بعضهم على بعض من غل حاقد يتعسر للاشتعال عند سنوح الاضطرام في حين ان أعدائهم من غير المسلمين يفرحون في دخائلهم لكل نائبة تنوبهم وتفرق شملهم شذر مذر. وأيضاً كان الإمام عليّ بن أبي طالب يرجو من الله العزيز القدير أن يجعله في تلك الأثناء بمنأى شاسع عن مجتمعات الناس المريبة وأن يجعل الأشياخ الوادعين من المسلمين النزهاء الزهاد بعيد عنه ممسكين بأسباب اخلاصهم عن التسرع بانتخابه خليفة للمسلمين وهم في الواقع لا يعفرون ما يضمره معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وطلحة بن عبيد الله وأحزابهم وأتباعهم من أساليب ماكرة لاستخلاف عثمان واستيلاء على رقاب المسلمين بكل ذريعة ميسورة.

وبدأ الناس في اليوم التالي لمدفن عثمان بن عفان يخرجون من بيوتهم أفراداً وجماعات يتحدثون عن الفتنة الكبرى التي وقعت وانتهت في ظاهرها بمقتل عثمان بن عفان. فمنهم من يعزو أسبابها إليه بعينه أو الى الفئة المحيطة به ليل نهار، ومنهم من يجرده تجريداً شاملاً منها فليس هو يعلم بها ولا يجيزها ومنهم من يدينه من جراء جملة من قضاياه فإنه قد أوى الحكم بن أبي العاص وأعطاه مئة ألف درهم بعدا كان قد أبعده رسوله الله إلى الطائف من جراء مساوئه ولم يوافق بعدئذ أبو بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب على عودته إلى المدينة في أبان خلافتهما وانه قد أعطى الحارث بن الحكم وهو أخو مروان بن الحكم أرض (مهرزور) وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قد جعلها وقفاً لتكون سوقاً لأهل المدينة خاصة وانه قد أقطع (روان بن الحكم) تمام ضيعة فدك اقطافاً وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قد جعلها وقفاً

خاصاً كذلك، وانه أعطى الخمس من مغانم المسلمين لمروان بن الحكم بعد فتح أفريقية، وانه قد أعطى (عبد الله بن خالد بن أسد) صلة مالية أربعمائة ألف درهم. ثم انه قد أمر بابعاد الشيخ الصالح (ابي ذر الغفاري) إلى قبعة (الربذة) النائية حتى مات فيها، وأبعد من البصرة (عامر بن عبد القيس) إلى الشام فانطلق إليه قوم من أهل مصر فيهم محمّد بن أبي حذيفة بن عتبة في جند، وكنانة بن بشر التجيبي في جند. وابن عديس البلوي في جند، وحكيم بن جبلة العبدي، وسدوس بن عبيس الشني ونفر من أهل الكوفة بينهم (الأشتر بن الحارث النخعي) في شهر شوال من السنة الخامسة والثلاثن فلما قابلوه واستعتبوه فأعتبهم وأرضاهم فانصرفوا عنه، ولكنهم في خلال انصرافهم إلى مصر وجدوا كتاباً من عثمان أو منسوباً إليه بخط كاتبه وعليه خاتمه إلى أمير

مصر يقول فيه إذا أتاك القوم فاضرب أعناقهم فعادوا به إلى عثمان في المدينة(19) ولبث الإمام عليّ بن أبي طالب طوال خمسة أيام متوالية، قاعداً في داره بعد مدفن عثمان بن عفان وهو يستقبل ناساً بعد آخرين من غير أن يعلن لهم موافقته الأيجابية على قبول منصب الخلافة الإسلامية إذ كان يتحاشى تعريض نفسه وقتئذ لمشكلات خاصة به ومشكلات عامة مع بعض الطامعين في سرائرهم في استخلاف عثمان بن عفان بدعاوى مصنوعة وحجج واهية النسج ما أنزل الله بها من سلطان. وفي ضحى اليوم الخامس بعد مدفن عثمان اقتل إليه فريق من علية المسلمين فيهم (طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام) فاقتنعوه بعد اصراره ونقاش هادئ بضرورة الرضوخ لقبول منصب الخلافة الإسلامية المعروضة عليه

فاشترط عليهم أخيراً أن تكون (المبايعة له) عامة في المسجد الجامع فأذعنوا لشرطه وبايعوه خليفة على المسلمين كافة. وكان في مقدمة المبايعين له من غير اكراه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وخطب الإمام عليّ (عليه السلام) بعد انتخابه خليفة للمسلمين فقال: أيها الناس، ان أحق الناس بهذا الأمر (الإمامة) أقواهم عليه لا وأعلمهم بأمر الله فيه، فإن شغب شاغب استعتب، فإن أبى، قوتل، ولعمري لئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى تحضرها الناس عامة وا إلى ذلك سبيل، ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ثم ليس الشاهد أن يرجع ولا الغائب أن يختار(20).

وأيضاً خطب في يوم آخر فقال: (اللّهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحكام ولكن لنرد المعالم من دنيك وتظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك) (21).

وكذلك خطب في الناس بشأن بيعتهم له فقال: (لم تكن بيعتكم إياي فلتة وليس امري وأمركم واحدا، إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم، أيها الناس أعينوني على أنفسكم وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها)(22).

ومن الجدير بنا أن نذكر هاهنا لعثمان بن عفان بعضاً من فضائله التي أخلدت ذكرى حياته فجعلتها محترمة في جانب من تاريخ الإسلام الحنيف، فهو من غير شك انه اشترى بئر معونة

من رجل يهودي في يثرب بمبلغ عشرين ألف درهم وتصدق بها على المسلمين ليستسقوا منها ما شاء لهم الاستسقاء مجاناً. واضطلع بتجهيز جيش العسرة بثلاثمائة بعير بكامل أقتابها وأحلاسها مع خمسين فرساً زيادة على تزويد الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) بألف دينار نقداً ليخفف بها عن الحاجة إلى اقتناء شتى لوازم الحرب للظهور يومذاك على المشركين وغير ذلك.

ومن الحوادث التاريخية غير المنسجمة مع حسن التصرف الفكري أن يبرئ فريق من المسلمين عقيب انتخابهم الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة للمسلمين فيطلبوا منه شيئاً أن يدعوا جميع الذين باشروا مقتل عثمان بن عفان في داره فيحاكمهم ويقتص منهم جزاء وفاقاً في حين انّ هؤلاء المطالبين بتنفيذ الاقتصاص يعلمون تمام العلم ان الذين أجلبوا عليه فقتلوه في داره أرهاطاً متفرقة جاءوا من بلاد متباعدة فتعارفوا مع الذين ناصروهم من أهل المدينة نفسها وان التحقيق في أمر جريمتهم يقتضي زمناً طويلاً ليس باليسير كما هم يظنون. فمن بين هؤلاء المجرمين ناس كانوا محتشدين خارج الدار يحرضون سواهم على اقتحام الدار على عثمان. ومنهم الذين تسلقوا إليه الجدار المجاور لداره وأحدثوا قتله، ومنهم الذين نفذوا فعلاً جريمة القتل ابتداء وانتهاء وكأن من بينهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وتظهيرهما من ذوي المقاصد الخفية لنيل الزعامة أو اقتناء المغانم وقد ذهبوا مع عائشة بنت أبي بكر إلى البصرة يطالبون بالثأر لإراقة دم عثمان. ومنهم مروان بن الحكم ومن ناصره من عشيرته وأنداده المتهورين وقد التجاؤا بادئ ذي بدء إلى معاوية في الشام ثم انصرفوا عنه إلى البصرة ليشاركوا عائشة ويناصروها على الثأر لمقتل عثمان ومنهم ناس قد نهبوا ما كان على

نساء عثمان وقريباته من حلي وما كان في داخل الدار من نفائس اخر وأموال مختلفة فكيف يستجيب الإمام لطلبهم في خلال تلك المدة العصيبة فهل يترك منطقة البصرة ليقع فيها ما يقع؟ أو يترك معاوية يمكر في الشام ما يمكر؟ أو يتيح السبيل لأنصار معاوية أن يتسللوا إلى اليمن لتخذيل المسلمين فيه عن المشاركة في نصرته عسكرياً وان نصرته لنصرة الدين الحنيف.

لكن الإمام عليّ (عليه السلام) بقي داخل المدينة راسخ الكيان قوي الإيمان لتنبيه أعداء المسلمين صمتا إلى ان الحكومة الإسلامية حازمة عارمة دائماً لن تنتكس لمجرد مقتل عثمان في المدينة أو عصيان معاوية في الشام وليس من مراء أبداً في ان الإمام عليّ (عليه السلام) هو رجل حرب وسياسة وتقوى أي انه ارتكب ولن يتركب في يوم من أيام حياته ذريعة من ذرائع الغدر أو التذلل أو المكر لبلوغ هدف من أهدافه الإسلامية المجيدة

ولذلك تهيأ يومذاك بأسرع مدة اغتنمها للسير إلى البصرة بجيش إسلامي مخلص ليخضد شوكة الثائرين فيها للمطالبة بدم عثمان بن عفان. ولا شك عندي في قليل أو كثير بأن (طلحة والزبير ومعاوية ومروان بن الحكم هم الذين استدرجوا أم المؤمنين (عائشة بنت أبي بكر) لكي تتولى قيادة الجيش في البصرة استغلالاً لمكانتها الدينية بين الناس وارتكازاً على سمعتها لكسب المعركة على التوكيد إلاّ ان الحرب ما كادت تنشب بين الفريقين المتبارزين حتى كشفت منها للعيان حقائق مهمة ففي اليوم الثاني انهزم من الميدان (أبان بن عثمان) مرتكباً ثم قتل (طلحة بن عبد الله) بسهم قتال أطلقه عليه (مروان بن الحكم) فدفن في منطقة (الهجريين) في منطقة البصرة ولا يزال قبره الآن معروفاً عند الناس. وأمّا الزبير بن العوام فقد خرج من المعركة

نادماً واتجه إلى واد السباع خارج البصرة ناوياً أن يبلغ المدينة فلقيه في الطريق عمرو بن جروز وانتهز مهلة لقتله فقتله غيلة جبانة ثم دفن في ذلك الوادي وعمره إذاك أربع وستون سنة.

واستدراكاً لسياق الحديث نذكر بأن الخليفة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أنفذ عبد الله بن عباس قبيل وقعة الجمل إلى مقابلة الزبير بن العوام وأوصاه قائلاً: لا تلقين طلحة فإنك ان تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول ولكن، الق الزبير فإنه ألين عريكة. فقل له: يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عدا مما بدا، فأجابه الزبير قائلاً: انا مع الخوف الشديد لنطمع(23).

وخطب الإمام عليّ (عليه السلام) في الناس قبل مسيره فقال: ان الله سبحانه بعث محمّداً وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي النبوة، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم، وبلغهم منجاتهم فاستقامت قناتهم واطمأنت صفاتهم. أما والله ان كنت لفي ساقتها حتى تولت بحذافيرها ، ما عجزت ولا جبنت وان مسيري هذا لمثلها فلاتقين الباطل حتى يخرج الحق من جنبه، ما لقريش ومالي؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقتلهم مفتونين وإنّي لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ما تنقم منا قريش إلاّ ان الله اختارنا عليهم فأدخلناهم في حيزنا(24)؟:

قال أبو جعفر الطبري: وسار عليّ (عليه السلام) نحو البصرة، ورايته مع ابنه محمّد بن الحنفية، وعلى ميمنته عبد الله بن عباس وعلى ميسرته عمر بن أبي سلمة، وعلي في القلب على ناقة حمراء يقود فرساً كميتا فلتقاه في (فيد)

غلام من بني سعد بن ثعلبة يدعى (مرة) فقال من هؤلاء؟ قيل هذا أمير المؤمنين، فقال سفره قانية فيها دماء من نفوس فانية، فسمعها أمير المؤمنين عليه السلام فدعاه فقال:

ما اسمك؟ قال: مرة قال (عليه السلام) أمر الله عيشك، أكاهن سائر اليوم بل عائف، فخلى سبيله ونزل في فيد قاتنه اسد وطيىء فعرضوا عليه أنفسهم فقال (عليه السلام): الزموا قراركم ففي المهاجرين كفاية. وقدم رجل من الكوفة (فيدا) فأتي عليّاً (عليه السلام) فقال له من الرجل؟ قال عامر بن مطرف قال الليثي: قال الشيباني. قال: أخبرني ما وراءك؟ قال: أردت الصلح (فأبو موسى صاحبك وإن أردت القتال فأبو موسى الأشعري لك بصاحب فقال (عليه السلام) ما أريد إلاّ الصلح، إلاّ أن يرد علينا.

قال أبو جعفر الطبري: وقدم عليه عثمان بن حنيف، وقد نتف طلحة والزبير شعر رأسه ولحيته وحاجبيه، فقال: يا أمير المؤمنين، بعثتني ذا لحية وجئتك أمرد؟ فقال (عليه السلام): أصبت خيراً وأجراً ثم قال: أيها الناس ان طلحة والزبير بايعاني ثم نكثاني بيعتي، وألبا عليَّ الناس، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ. والله انهما ليعلما أني لست من دونهما اللّهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا(25).

ولما انتهى القتال بين الفريقين انطلق الإمام (عليه السلام) نحو الميدان ومن حوله جمهور كبير من أصحابه فأقام الصلاة على جميع القتلى من أصحابه ومن أعدائه. وكان عدد القتلى مجهولاً من يومذاك حتى يومنا هذا.

ثم انصرف نحو البصرة يوم الأثنين أي بعد الوقعة بثلاثة أيام فانتهى

إلى المسجد الجامع فصلى فيه فأتاه الناس يهرعون مستخبرين فارتقى المنبر وخطبهم فقال(26): أما بعد فإن الله ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة وعقوجم وعقاب أليم قضى ان رحمته ومغفرة وعفوه لأهل الطاعة من خلقه وبرحمته اهتدى المهتدون. وقضى ان نقمته وسطوته وعقابه على أهل معصيته من خلقه بعد الهدى والبينات ما ضل الضالون.

فما ظنكم يا أهل البصرة، وقد نكثتم بيعتي وظاهرتم عليَّ عدو عدوي؟ فقام إليه رجل فقال: تظن خيراً. ونراك قد ظهرت وقدرت فإن عافيت فقد اجترمنا، وإن عفوت فالعفو أحب إلى الله تعالى فقال الإمام (عليه السلام) قد عفوت عنكم، وإياكم والفتنة فإنكم أول الرعية نفث التيعة وشق عصا هذه الأمة. ثم جلس للناس فبايعوه على راياتهم حتى الجرحي والمستأمتة.

ثم راح إلى عائشة بنت أبي بكر على بغلته، فلما انتهى إليها في دار عبد الله بن حلف ودخل إليها سلم عليها وقعد عندها ودار بينهما بعض الحديث، ثم قام لينصرف أشار إلى أبواب مغلقة في الدار فقال: لو فتحتها وجدت فيها لاجئين إلى حماك مثل (مروان بن الحكم) وعبد الله بن الزبير. ثم أمسك عن الكلام وانصرف لشأنه إلى بيت المال. ولما نظر فيه وجد حواياته الجاهزة ستمائة ألف درهم فقسمها على من شهد المعركة منهم فأصاب كل واحد خمسمائة درهم على السواء، ثم جلس فكتب بالفتح إلى الكوفة:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة. سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإن الله حكم عادل لا يغيروا ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. أخبركم عنا وعمن سرنا إليهم

من جموع أهل البصرة وان تأشب إليهم من قريش وغيرهم من طلحة والزبير ونكثهم صفقة ايمانهم فنهضت من المدينة حتى انتهى إليَّ خبر من سار إليها وجمالعتهم ما فعلوه بعاملي (عثمان بن حنيف) حتى قدمت (ذاقار) فبعثت الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر وقيس بن سعد فاستنفرتكم بحق الله وحق رسول الله وحقي. فأقبل إليَّ اخوانكم سراعاً فسرت إليهم حتى نزلت ظهر البصرة، فأعذرت بالدعاء، وقمت بالحجة، واقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم واستعتبتهم من نكثهم بيعتي وعهد الله عليهم، فأبوا إلاّ قتالي وقتال من معي، والتمادي في الغي فناهضتهم بالجهاد. فقتل الله من قتل منهم ناكثاً، وولى من ولى إلى مصرعهم وقتل طلحة والزبير وخذلوا وادبروا وتقطعت بهم الأسباب ولما راوا ما حل بهم سالوني العفو عنهم فقبلت منهم وغمدت السيف عنهم وأجريت الحق والسنة فيهم واستعملت (عبد الله بن عباس) على البصرة وأنا سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى، وقد بعثت إليكم زجر بن قيس الجعفي لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم وردهم الحق علينا ورد الله لهم وهم كارهون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(27).

ثم جهز عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عائشة بنت أبي بكر بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع. وأخرج معها كل من نجا فمن خرج معها إلاّ من أحب المقام. وأختار لها الإمام (عليه السلام) أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات وأرسل معها أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر، وخرجت إلى المدينة يوم السبت أول أيام رجب سنة ست وثلاثين هـ . وخرج أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الكوفة وقد استخلف على البصرة عبد الله بن

عباس. وولى على الخراج وبيت المال زياد بن أبيه(28).

وكتب إلى أمراء جنوده أن لكم عندي خير ما تتوقعون. لكم عندي إلاّ احتجز دونكم سراً إلاّ في حرب ولا أطوي عنكم أمراً إلاّ في حكم ولا أوخر حقاً لكم عن محله ولا أرزاكم شيئاً, وان تكونوا عندي في الحق سواء فإن أبيتم أن تستقيموا لي على ذلك لم يكن أحد أمون عليَّ ممن فعل ذلك منكم. ثم أعاقبه عقوبة لا يجد عندي فيها هوادة.

وكتب إلى أمراء الخراج: أرحموا ترحموا ولا تعذبوا خلق الله ولا تكلفوهم فوق طاقتهم وأنصفوا الناس من أنفسكم وأصبروا لحاجاتهم. فإنكم خزان الرعية لا تتخذن حجاباً ولا تحجبن أحداً عن حاجة حتى ينهيها إليكم لا تأخذوا بأحد إلاّ كفيلاً عمن كفل عنه، وإياكم وتأخير العمل ودفع الخير إلا كفيلاً عمن كفل عنه. وإياكم وتأخر العمل ودفع الخير فإن في ذلك الندم.. والسلام(29).

ومن كتاب من الإمام عليّ (عليه السلام) إلى معاوية قال: فسبحان الله ما أشد لزومك للأهواء المبتدعة والحيرة المتبعة مع تضيع الحقائق واطراح الوثائق التي هي لله طلبة، وعلى عبادة حجة، فأما اكثارك الحجاج في عثمان وقتلته فغنك انما نصرت عثمان حين كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له(30).

ولما بلغ معاوية ما انتهت إليه (معركة الجمل) وما نزل بالزبير بن العوام وطلحة بن عبيد خاصة وكيف انصرفت عائشة غير موفقة إلى مدينة

(يثرب). خامرته أحاسيس وشكوك مربكة جعلته مضطراً في آخر الأمر أن ينشر (قميص عثمان الملطخ بدمه) على رمح شاهق في الشام فيجتمع في كل يوم حواليه جموع حاشدة من الرجال والنساء يتباكون على مقتله. ثم اهتدى بعد ذلك إلى ذريعة أخرى موائمة لخفايا نياته الدنيئة فدعا الناس إلى التضامن والتجرد للانتقام الفعلي في الكوفة من قتلة عثمان فشرعوا يناصرون ويتوافدون جماعات إلى جماعات من أجل الانتقام الشامل في حين كان معاوية بالذات لا ينفك يثير عواطفهم. ويخطب في جموعهم ويصور لهم كيف القوة بعد مقتلة في الطريق مدى ثلاثة أيام متوالية متوالية من غير دفن ولث معاوية يثيرهم بكل وسيلة ويستجمعهم حتى بلغ عددهم ثمانين ألف متطوع وفيهم كثير من شيوخ القبائل وأصحاب المكانة الاجتماعية المرموقة وبايعوه أميراً عليهم وليس خليفة على جميع المسلمين، وكان من بينهم عمرو بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن ذي الكلاع ومن على شاكلتهم. ومن المعلوم ان الناس في بلاد الشام كانوا منسجمين يومذاك مع سياسة معاوية المالية والقضائية والدينية والعشائرية منذ أمد سابق في حين انهم لم يكونوا كذلك مع ما يسمعونه من سياسة

الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) إن لم يكن عليّ بن أبي طالب في الواقع يتساهل مع أحد في أي حق اجتماعي أو ديني أو غيرهما على الإطلاق ولم يكن ليتخذ من خزانة أموال المسلمين مجلبة لقلوب الناس أو ينفق منها على الشعءار وعلى المولين لسياسته السلسلة المنقلبة في الشام.

وغني عن التوكيد ان الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قد حاول كثيراً أن يحوي قتلة عثمان عن حق ويحصيهم عدداً مع حرصه على نفسه ألا ينحرف ضمناً ساخطاً عليهم فيقع من جراء ذلك في اثم هو بريء منه. وكان كلما

يحاول كشف الجناة الحقيقيين وتشخيصهم يرى ان الذين يتقدمون أمام عينيه للاعتراف أو الإقرار يبلغون زهاء ألف شخص ولديهم من المزاعم والمبررات ما يجعله في حيرة وشكوك مربكة ولا يتيح له مجالاً خالصاً منيراً لمقاضاتهم ولا سيما بين قبائل ذوي آراء غامضة ونيات متباينة بشأن مقتل عثمان وأسباب مقتله. ويخشى في الوقت نفسه أن يسبب اضطراباً بينهم أو يستحدث مشكلة دامية بعد أمد قريب وبعيد من الزمن. لقد كان معاوية من دأبه أن يتحين كل فرصة تفيده لتحقيق ما كان يتمنى معاوية بعد وفاة الخليفة (عمر بن الخطاب) للوصول إلى دست الخلافة الإسلامية ولو في قطر إسلامي صغير بمعونة من الرجال الكبراء ذوي المطامع ويتخذهم أعواناً له يتعاظم بهم على سوية الناس. وها هي ذي قد أتيحت له تلك الفرصة خاصة في الشام نفسها ليتادي بالثأر لمقتل الخليفة عثمان بن عفان فاستغلها بصورة مقنعة للناس ولا تدعو إلى الشك وانطلق يبذل أقصى امكاناته ليجمع من حوله الوف الناس وقد أصاب حميم هدفه حينذاك واستغل ذكاءه المريب في اهمال أبناء عثمان بن عفان عن تقريبهم إليه لينادوا معه بطلب الثأر لمقتل أبيهم في مدينة يثرب لئلا يحق لهم في الأخير أن يحوزوا منفعة أو اشتراكاً في من مواقع الحكم بعد انتهاء الحرب إذا ما انتهت الحرب في مصلحتهم ضد قتلة عثمان بن عفان.

لقد خرج معاوية بن أبي سفيان من الشام على رأس ثمانين ألف مقاتل نحو الكوفة ليثأر بهم لمقتل عثمان بن عفان كما زعم يومذاك، ولما بلغ أراضي صفين ما بين العراق والشام أمر أتباعه فنزلوا بأثقالهم عليها وأقاموا خيامهم على شريعة الفرات. ثم أقبل الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) من

الكوفة على رأس سبعين ألف مقاتل فأمر بأن يقيموا خيامهم على مقربة من خيام أهل الشام ولكن الذي زعجهم حينذاك ألا يجدوا مقربة منهم سبيلاً ميسوراً للوصول إلى شريعة الماء الذي لا غنى عنه على الإطلاق،

فاستدعى الإمام (عليه السلام) قادة جيشه واستوضحهم عن تيسر سبيل الماء من غير البدء بمعركة دامية، فلم يجدوا أبداً من غير الاستعانة بالسيوف للوصول إلى حيازة الماء، فانتدب لذلك قائداً من قادة جيشه هو (الأشتر النخعي) وأيده بمئة مقاتل لتيسير حيازة الماء دائماً لجيش الإمام (عليه السلام) من غير معارضة فقاتلهم مالك الأشتر فطردهم من الشريعة وغلبهم عليها ولما أخذوا ما يكفيهم من الماء سمحوا لجيش معاوية أن يأخذوا بعدهم ما يشاؤون من ماء الفرات فانطلق عمر بن العاص إلى معاوية وقال له: ألم أقل لك لا تمنع الماء عن جيش عليّ بن أبي طالب وإلاّ فانهم سوف يخزونك بارغام جيشك على الفرار من الشريعة وينقلون ما يشاؤون من الماء من غير مخافة أو اصطبار؟ فلم ينبس معاوية ببنت اعتذار معقول فلبثوا كجيش الإمام عليّ (عليه السلام) يأخذون من ماء الفرات ما شاؤوا ومتى شاؤوا ليدرك الأذكياء المدركون ان (عليّ بن أبي طالب) ليس قاسياً ولا منحرفاً بذاته ولا ينبغي الفرقة بين المسلمين أو التنكيل بطائفة منهم في مقام الاصلاح فاستدعى عليّ (عليه السلام) (بشير بن عمرو بن محصن الأنصاري) وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن الربعي التميمي وأوكل إليهم أن يذهبوا إلى مواجهة (معاوية) يوجاهروه بالحسنى عسى أن يستدرجوه إلى الطاعة والجماعة قبل سفك الدماء، فانصرفوا إلى معاوية حتى دخلوا عليه استفؤهم القعود بادر (أبو عمرو بن محصن) فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد يا معاوية فإن الدنيا عنك زائلة، وانك راجع إلى الآخرة وان الله

مجازيك بعملك ومحاسبك بما قدمت يداك وانني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة، وألا تسفك دماءها بينها. فقطع عليه معاوية الكلام وقال فهلا أوصيت صاحبك فقال سبحان الله صاحبي لا يوصى. ان صاحبي ليس مثلك صاحبي أحق الناس بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول. قال معاوية فنقول ماذا قال: أدعوك إلى تقوى ربك، واجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دينك. وخير لك في عاقبة أمرك. قال معاوية ويظل دم عثمان؟ لا والرحمان لا أفعل ذلك أبداً(31) . فعقب على ذلك الحديث (شبث بن الربعي) وقال: بعد حمد الله والثناء عليه، يا معاوية قد فهمت ما رددت على ابن محصن، انه لا يخفى علينا ما تقر وما تطلب، غنك لا تجد شيئاً تستغوي به الناس ولا شيئاً تستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا انه قلت لهم، قتل إمامكم مظلوماً فهلموا نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام رذال، وقد علمنا أنك أبطأت عنه بالنصر عامداً لمآرب في نفسك وأجبت له القتل لهذه المنزلة التي تطلب. ورب مبتغ أمراً وطالب له يحول الله دونه، وربما أوتى المتمني أمنيته وربما لم يؤتها ووالله مالك في واحدة منها خير. والله لئن أخطأك

ما ترجو انك لشر العرب حالاً، ولئن أصبت ما تتمناه لا تصيبه حتى تستحق صلي النار، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله(32).

فتقلقل معاوية في مجلسه ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه. (أما بعد فإن أول ما عرفت من سفهك وخفة حلمك قطعك على الحسيب الشريف

ص 36

سيد قومه منطقه. ثم عبثت بعدئذ فيما لا علم لك به، وقد كذبت ولؤمت أيها الأعرابي الحليف الجافي في كل ما وصت وذكرت. انصرفوا من عندي فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف وغضب فخرج القوم وشبث يقول: أعلينا تهول بالسيف، أما والله لنجعله إليك) (33) ولما حضروا بين يدي عليّ بن أبي طالب شرحوا كل الذي دار بينهم وبين معاوية وذلك في شهر ربيع الآخر من السنة السادسة والثلاثين.

وخرج قراء أهل العراق وقراء أهل الشام فعسكروا ناحية صفين في ثلاثين ألفاً وعسكر عليّ (عليه السلام) على الماء وعسكر معاوية أعلى منه على الماء ومشت القراء فيما بين عليّ (عليه السلام) ومعاوية منهم عبيد السلماني وعلقمة بن قيس النخعي وعبد الله بن عتبة وعامر بن عبد القيس، فدخلوا على معاوية فقالوا: يا معاوية ما الذي تطلب قال: أطلب بدم عثمان، قالوا ممن تطلب بدم عثمان قال: أطلبه من عليّ، قالوا : هو قتله؟ قال: نعم هو قتله.

وأوى قتلته، فانصرفوا من عنده فدخلوا إلى عليّ (ع) فقالوا: ان معاوية يزعم انك قتلت عثمان. فقال: اللههم لكذب فيما قاله، لم أقتله، فرجعوا إلى معاوية فأخبروه. فقال لهم: انه لم يكن قتله بيده وأنه أمر ومالأ. فرجعوا إلى عليّ فقالوا إن معاوية يزعم انك لم تكن قتلت بيدك فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان فقال: أللهم لكذب فيما قال. فرجعوا إلى معاوية فقالوا ان عليّاً يزعم انه لم يفعل، فقال معاوية: ان كان صادقاً فليقدنا من قتلة عثمان فانهم في عسكره وجنده وأصحابه وعنده، فرجعوا إلى عليّ (عليه السلام) فقالوا: ان معاوية يقول لك ان كنت صادقاً فادفع إلينا قتلة عثمان

ص 37

أو مكنا منهم، فقال لهم ان القوم تأولوا عليه القرآن ووقعت الفرقة.. فقتلوه في سلطانه، وليس على ضربهم مثلهم قود. فخصم (رد أو نفي) على معاوية(34).

لقد كان معاوية مصمماً يومذاك على الحرب منذ خروجه من الشام، مؤملاً أن ينتصر أخيراً فيصيب قسطاً من السلطة في الشام وهو يعلم ان قتلة عثمان الحقيقين هما اثنان (قتيرة بن وهب، وسودان بن حمران) وكلاهما

قتلا في يوم الدار نفسه على أيدي (عبيد عثمان بن عفان) ولم يبق لهما وجود في جيش الإمام عليّ (عليه السلام) يومذاك. وأما من سواهما من الحضور فلم يكونوا قتلة بالفعل وإنما شاركوا في الاغراء به وحصره والهجوم على داره وهم: (عمرو بن الحمق الخزاعي والأشتر النخعي ومحمّد بن أبي بكر) وآخرون على شاكلتهم على هؤلاء قود يحكم الشرع.

ولذلك عاد معاوية فاعترض بقوله: ما دام الأمر كما تزعمون فلماذا ابتز الأر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن هاهنا معنا؟

فقال الإمام (عليه السلام) ان الناس تبع المهاجرين والأنصار – في مثل هذا الأمر – وهم شهود للمسلمين في البلاد على ولاتهم وأمراء دينهم، فرضوا بي وبايعوني ولست أستحل أن ادع ضرب (مثل) معاوية يحكم بيده على الأمة ويشق عصاهم،فرجعوا إلى معاوية وأخبروه بذلك، فقال ليس كما يقول، فما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر ويؤمروا فيه؟ فانصرفوا إلى عليّ بن أبي طالب فأخبروه بقوله، فقال ويحكم هذا (للبدريين حسب) دون الصحابة، وليس في الأرض بدري إلا وقد

بايعني وهو معي وقد رضي، فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم.

ولبثوا على تلك الحال ثلاثة أشهر ربيع الآخر وجمادى الأولى وجمادى الآخرة وهم مع ذلك يفزعون الفزعة فيما بينهم ونحجز القراء بينهم وقد بلغ عدد تلك الفزعات خمساً وثمانين فزعة لا يقع بينهم قتال(35).

ولما استقبل الناس شهر صفر من السنة السابعة والثلاثين للهجرة جمع الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قادة جيشه وقال لهم: إني لأخشى أن يزعم معاوية لجيشه بأننا نحن نروم أن نتجنب الحرب بهذا الصمت خوفا من أن يصيبنا دحر أمام جيشهم خاصة بعد خروجنا نحن منذ قريب من حرب الجمل ولذلك فإني سوف أرسل غداً وهو اليوم الأول من صفر نفراً من أصحابنا لينادوا في أزاء معسكر أهل الشام بأنني قد استأنيت بكم لتراجعوا الحق وتثبتوا إليه وتعتصموا به واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تحيدوا عن غلوائكم ولم تجيبوا إلى حق. وإني قد نبذت إليكم على سواء، ان الله لا يحب الخائنين. وفي صباح اليوم التالي بادر الجانبان المتعاديان إلى تعبئة عساكرهم وكتبوا كتائبهم وانطلق الإمام (عليه السلام) يدور بين صفوف عساكرهم يوصيهم (أن لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فهي حجة أخرى لكم عليهم، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة. ولا تسئلوا قتيلاً، فإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا

تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً إلاّ بإذني، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلاّ ما وجدتم في عسكرهم ولا تهجوا امرأة إلاّ بإذني وان شتمن أعراضكم، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم فانهن ضعاف القوى والأنفس

ص 39

والعقول، ولقد كنا وانا لنؤمر بالكف عنهن وهو مشركات، وان كان الرجل ليناول المرأة في الجاهلية بالهراوة أو الحديد فيعير بها عقبه من بعده. عباد الله: اتقوا الله وغضوا أبصاركم واخفظوا الأصوات. واقلعوا الكلام ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمجادلة والمبارزة والمعانقة، واثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (36).

وكان ترتيب عسكر (عليّ عليه السلام) بموجب ما رواه عمرو بن شمر عنه جملة الرواة انه جعل على الخيل (عمار بن ياسر) وعلى الرجالة (عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي) ودفع اللواء إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري، وجعل على الميمنة الأشعث بن قيس وعلى الميسرة عبد الله بن العباس. وجعل على رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزكاعي وعلى رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبيدي وجعل القلب مضر الكوفة والبصرة جميعاً وجعل على ميمنة القلب اليمنى وعلى ميسرته ربيعة، وعقد ألوية القبائل أيضاً... وهكذا انتظمت القبائل تحت ألويتها المعقودة تحت قيادة رؤسائها وأمرائها باشراف عليّ بن أبي طالب (عليه السلام).

وأما معاوية فاستعمل على الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري وجعل على الميمنة عبد الله بن عمر بن العاص وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري وأعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وجعل على أهل دمشق وهم القلب الضحاك بن قيس الفهري. وعلى أهل حمص وهم الميمنة ذا الكلاع الحميري، وعلى أهل قنسرين وهم في الميمنة أيضاً زفر بن الحارث الكلابي وعلى أهل الأردن ومم في الميسرة سفيان

ص 40

بن عمرو أب الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين. وهم في الميسرة أيضاً مسلمة بن مخلد وعلى رجالة أهل دمشق بشر بن أبي ارطاة العامري وعلى رجالة أهل حمص (حوشبا ذا ظليم) وعلى رجالة قيس – طريف بن حابس الألهاني .. وهكذا انظمت القبائل تحت ألويتها المعقودة تحت قيادة رؤسائها وأمرائها باشراف معاوية بن أبي سفيان.

وفي اليوم الأول من شهر صفر سنة سبع وثلاثين وكان يوم الأربعاء اقتتل رجال من هؤلاء ورجال من هؤلاء قتالاً شديداً ثم توقف القتال بينهم بعد منتصف النهار من غير أن يفوق أحدهما على الآخر وكان الشمرف على تنظيم الرجال العراقيين في ذلك اليوم (الأشتر النخعي) وعلى تنظيم الرجال الشاميين (حبيب بن مسلمة) ثم

برز هاشم بن عتبة في اليوم الثاني يتقدم رجالاً من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وهم على خيل حسنة فبرز له أبو الأعور السلمي بجماعة من أهل الشام فاقتتلوا جميعاً ثم اقتتلوا نهارهم كله حتى انصرفوا إلى معسكراتهم لأداء الصلاة من غير أن يفوق أحد الجانبين على الآخر، وفي اليوم الثالث وكان يوم الثلاثاء برز عمار بن ياسر على الرجالة ومعه على الخيل زياد بن النظر, وكان عمر بن العاص على متقدمي جيش معاوية للحرب، فالتحم خيل الجانبين أول الأمر فلم يظهر أحدهما على الآخر فحمل عمار بن ياسر بمن معه من الرجال فتقهقر عمرو بن العاص عن موقفه. وفي المساء انصرف عمار بن ياسر مع مرافقيه لأداء الصلاة من غير أن يحرر نصراً على أعدائه وروى نصر بن مزاحم في كتابه (صفين) ان (عليّ بن أبي طالب) نظر إلى رايات معاوية وأهل الشام فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة انهم ما أسلموا ولكن استسلموا يوم الفتح للرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) ولما وجدوا أعواناً لهم اليوم رجعوا إلى عدواتهم لنا، ألا انهم لهم يتركوا الصلاة،

وروى نصر بن مزاحم أيضاً عن عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال: لما كان قتال صفين قال رجل لعمار بن ياسر: يا أبا اليقضان.. ألم يقل رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): قاتلوا الناس حتى يسلموا فإذا أسلموا عصموا مني دماءهم؟ قال: بلي, ولكن والله ما أسلموا ولكن استسلموا وأسروا الكفر حتى وجدوا عليه أعواناً.

وروى نصر في كتاب صفين ان عمرو بن العاص كان عدواً للحارث بن نضر الخثعمي صاحب عليّ بن أبي طالب، وكان عليّ (عليه السلام) معروفاً بغاية الشجاعة بين أهل الشام فلا يبارزه أحد إلاّ في الندرة القليلة، وكان عمرو بن العاص قلما يجلس مجلساً إلاّ ذكر فيه الحارث بن نضر وعابه معابة جارحة فقال فيه الحارث بن نضر الخثعمي:

ليس عمرو نبارك ذكره الحارث *** بالسوء أو يلاقي عليّاً

واضع السيف فوق منكبه الأيمن*** لا يحسب الفوارس شيا

ليت عمرا يلقاه في حومة النقع*** وقد أمست السيوف عصيا

... إلخ.

فشاعت هذه الأبيات حتى بلغت عمرا فأقسم بالله ليلقين عليّاً ولو مات ألف موتة. فلما اختلطت الصفوف لقيه (عمرو) فحمل عليه برمحه فرجع إليه الإمام (عليه السلام) شاهراً سيفه فألقى عمرو نفسه عن فرسه كاشفاً عورته فانصرف عنه الإمام(37).

وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب استيعاب ان (بسر بن ارطاة) من الأبطال الطغاة وكان مع معاوية في صفين فأمره أن يلقى عليّاً (عليه السلام) في القتال، وقال له: إني سمعتك تتمنى لقاءه فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على

الدنيا والآخرة ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى رأى عليّاً (عليه السلام) في الحرب فقصده، فالتقيا فقصده عليّ بن أبي طالب فصرعه أرضاً فرفع ساقيا وكشف عن عورته. ولما بدت سوأته انصرف عنه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وعسكر معاوية يضحكون ثم قال أبو عمر بن عبد البر وللشعراء أشعار مذكورة في موضعها فمنها ذكر ابن الكلبي والمدائني:

أفي كل يوم فارس لك ينتهي*** وعورته وسط العجاجة بادية

يكف لها عنه عليّ سنانه*** ويضحك منها في الخلاء معاوية

بدت أمس من عمرو فقنع رأسه*** وعورة بسر مثلها حذو حاذيه(38)

وجملة القول ان الحرب استمرت بين الفريقين أربعين صباحاً بين حرب متصلة ومنقطعة وما بين شديدة منهكة وبين واهنة غير منهكة حتى قتل من أهل الشام خمسة وأربعين ألف مقاتل. ومن العراقين خمسة وعشرين ألف مقاتل، ثم خرج عليّ بن أبي طالب وقال لمعاوية للمرة الثانية علام تقتل الناس بيني وبينك لحاكمك إلى الله عز وجل فأينا قتل صاحبه استقام له الأمر فقال معاوية لأصحابه: يعلم انه لا يبارزه أحد إلا قتله(39).

وروى نصر بن مزاحم في كتاب صفين ج 8 ص 10 :ان عماراً بن ياسر نادى في صفين قبل مقتله بيوم أو يومين أين من يبغي رضوان الله عز وجل ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ فأتته عصابة من الناس

اقصدوا بنا قصد هؤلاء القوم الذين يتبعون دم عثمان ويزعمون ان قتل مظلوما. والله ان كان إلاّ ظالماً لنفسه. الحاكم بغير ما أنزل الله.

ودفع عليّ (عليه السلام) الراية إلى (هاشم بن عتبة بن أبي وقاص) وكان عليه ذلك اليوم درعان، فقال له عليّ (عليه السلام) كهيأة المازح – أبا هاشم، أما تخشى على نفسك أن تكون أعور جباناً؟ قال ستعلم يا أمير المؤمنين والله لألفن جماجم هؤلاء لف رجل ينوي الآخرة. فأخذ رمحاً فهزه فانكسر. ثم أخذ آخر فوجد جاسياً فالقاه. ثم عاد برمح لين فشد به اللواء(40).

وروى نصر بن مزاحم قال حدثنا عمر بن سعد قال: بينما عليّ بن أبي طالب كان واقفاً بين جماعة همدان وحمير وغيرهم من افناء واخلاط قحطان إذ نادى رجل من أهل الشام من دل على أبي نوح الحميري فقيل له قد وجدته فماذا تريد؟ فحسر عن لثامه فإذا هو ذو الكلاع الحميري ومعه جماعة من أهله ورهطه.. فقال لأبي نوح سر معي؟ قال إلى أين؟ قال: إلى أن نخرج عن الصف، قال: ما شأنك قال: ان لي إليك لحاجة(41).

قال أبو نوح... معاذ الله أن أسير إليك إلاّ في كتيبة. قال ذو الكلاع بلى: فسر فلك ذمة الله وذمة رسوله وذمة ذي الكلاع حتى ترجع إلى خيلك، فإنّي أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه. فسار أبو نوح وسار ذو الكلاع فقال له: إنما دعوتك أحدثك حديثاً حدثاه عمرو بن العاص قديما في خلافة عمر بن الخطاب ثم اذكرناه الآن به فأعاده، انه يزعم انه سمع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال: يلتقي أهل الشام وأهل العراق في احدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار بن ياسر. فقال

أبو نوح: نعم والله انه لفينا قال: نشدتك الله أجاد هو على قتالنا؟ قال أبو نوح: نعم ورب الكعبة، لهو أشد على قتالكم مني ولوددت انكم خلق واحد فذبحته وبدأت بك قبلهم... وأنت ابن عمي قال ذو الكلاع: ويلك علام تمني ذلك منا؟ فوالله ما قطعتك فيما بيني وبينك قط. وان رحمك لقريبة، وما يسرني أن أقتلك. قال أبو نوح ان الله قطع بالإسلام أرحاماً قريبة،ووصل به أرحاماً متباعدة وإني قاتلك وأصحابك لأنا على الحق وأنتم على الباطل. قال ذو الكلاع: فهل تستطيع أن تأتي معي صف أهل الشام فأنا لك جار منهم حتى تلقى عمرو بن العاص. فتخيره بحال عمار وجده في قتالنا لعله أن يكون صلح بين هذين الجندين؟

قلت: واعجباه من قوم يعتريهم الشك في أمرهم لمكان عمار. ولا يعتريهم الشك لمكان عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ويستدلون على ان الحق مع أهل العراق يكون عمار بين أظهرهم، ولا يعبأون بمكان عليّ (عليه السلام) ويحذرون من قول النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم): (تقتلك الفئة الباغية) ويرتاعون لذلك ولا يرتاعون لقوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) في عليّ (عليه السلام): (اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) ولا لقوله: (لا يحبك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)(42).

كان عليّ بن أبي طالب في أشد أيم صفين يباشر الحرب بنفسه مع جنوده الأبطال حتى لقد صارحوه إلاّ بخامر الغمرات السود ما داموا قائمين حواليه، فيجيبهم قائلاً: ألست معكم من جند الله أما معاوية بن أبي سفيان فلم يكن كذلك ولا يخترمه أسف باهظ على مقتل بطل بريء من أبطال المسلمين إذ كان يجلس في أقصى الحومة تحت قبة من الكرابيس السميكة ومن حوله الرجال الأشداء يحمونه ويحمون مصالحهم معه من كل

لأواء ومن كل أذى.

وفي هذا اليوم وهو اليوم السابع من أيام صفين كان أول فارسين التقيا فيه (حجر الخير، حجر بن عدي، وحجر الشر الكنده بن عمه) وهو من أصحاب معاوية قاطعنا برمحيهما وخرج رجل من بني أسد يقال له خزيمة الأسدي من عسكر معاوية فضرب حجر بن عدي ضربة شديدة برمحه فحمل أصحاب عليّ (عليه السلام) فهرب ناجياً نحو معسكر معاوية بعدما قتل حجر الخير، ثم برز حجر الشر من جديد فبرز إليه الحكم بن أزهر. من أهل العراق فقتله حجر الشر فخرج إليه رفاعة بن ظالم الحميري من جيش العراق فقتله وعاد إلى أصحابه يقول: الحمد لله الذي قتل حجر الشر بالحكم بن أزهر(43).

ثم ان عليّاً (عليه السلام) دعا أصحابه أن يذهب واحد منهم بمصحف كان في يده إلى الشام فقال: من يذهب إليهم فيدعوهم إلى ما في المصحف هذا؟ فسكت الناس وأقبل فتى اسمه سعيد فقال: أنا صاحبه وأعاد القول ثانية، فسكت الناس وتقدم الفتى سعيد فقال: أنا صاحبه، فسلمه إليه فقبضه الفتى ثم أتاهم فناشدهم الله ودعاهم إلى ما فيه فقتلوه، فقال عليّ (عليه السلام) لعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي احمل عليهم الآن، فحمل بمن معه من أهل الميمنة عليهم وجعل يضرب بسيفه قدما ويقول:

لم يبق غير الصبر والتوكل*** والترس والرمح وسيف مقصل

ثم التمشي في الرعيل الأول*** مشي الجمال في حياض المنهل

فلم يزل يحمل حتى انتهى إلى معاوية والذين بايعوه على الموت فأمرهم أن يصمدوا لعبد الله بن بديل، وبعث مضطراً إلى حبيب بن مسلمة

الفهري وهو في الميسرة أن يحمل عليه بجميع من معه واختلط الناس واضطرم الفيلق، ميمنة أهل العراب وميسرة أهل الشام وأقبل عبد الله بن بديل يضرب الناس بسيفه قدما حتى أزال معاوية عن موقفه منهزماً وجعل عبد الله ينادي يا لثارات عثمان وإنما يعني أخا له قد قتل، وظن معاوية وأصحابه أنه يعني عثمان بن عفان وتراجع معاوية القهقري كثيراً وأشفق على نفسه وأرسل إلى حبيب بن مسلمة مرة ثانية يستنجده ويستصرخه ويحمل حبيب حملة شديدة بميسرة معاوية على ميمنة العراق فكشفها حتى لم يبق مع بن بديل إلاّ نحو مئة إنسان من القراء فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم وأمر ابن بديل في الناس وصمم على مقتل

معاوية، وهو يطلب موقعه ويصمد نحوه حتى انتهى إليه فاضطرب معاوية غاية الاضطراب فنادى في الناس.. ويلكم: الصخر والحجار إذا عجزتم وكللتم عن السلاح!! فرضخه الناس بالصخر والحجارة جميعاً حتى أثخنوه فسقط أرضاً فأقبلوا عليه بسيوفهم فقتلوه(44).

قال الراوي نصر بن مزاحم في كتاب (صفين) ثم كانت بين الفريقين الوقعة المعروفة بوقعة صفين: حدثنا عمر بن سعد عن سليمان الأعمش عن إبراهيم النخعي قال : حدثنا القعقاع بن الأبرد الطهوي، قال: والله اني لواقف قريبا من عليّ (عليه السلام) بصفين يوم (وقعة الخميس) وقد التفت،مذحج وكانوا في ميمنة عليّ (عليه السلام) وعك ولخم وجذام والأشعريون، فلقد والله رأيت ذلك اليوم من قتالهم وسمعت من وقع السيوف على الرؤوس وخبط الخيول بحوافرها في الأرض وفي القتلى ما الجبال تهد ولا الصواعق تصعق بأعظم من هؤلاء من الصدور من تلك الأصوات، ونظرت إلى عليّ (عليه السلام) وهو قائم

فدنوت منه فأسمعه يقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله اللهم إليك الشكوى وأنت المستعان. ثم نهض حين قام فأتم الظهيرة وهو يقول: ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين وحمل على الناس بنفسه وسيفه مجرد بيده، فلا والله ما حجز عن الناس ذلك اليوم إلا الله رب العالمين.. في قريب من ثلث الليل الأول وقتلت يومئذ أعلام العرب.. وكان في رأس عليّ (عليه السلام) ثلاث ضربات وفي وجهه ضربتان وقتل في هذا اليوم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وقتل أهل الشام عبد الله بن ذي الكلاع الحميري. وقال معقل بن نهيك بن يساف الأنصاري:

يا لهف نفسي ومن يشفى حزازتها*** إذ أفلت الفاسق الضليل منطلقا

وأفلت الخيل عمرو وهي شاحبة*** تحت العجاج تحت الركض والعنقا

وافت منية عبدالله إذ لحقت*** قب الخيول به أعجز بمن لحقا

وانساب مروان في الظلماء مستترا*** تحت الدجى كلما خاف الردى ارقا

وقال الأشتر:

نحن قتلنا حوشبا*** لما غدا قد أعلما

وذو الكلاع قبله*** ومعيدا إذ أقدما

إن تقتلوا منا أبا اليقظان*** شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم*** سبعين كهلا مجرما

اضحوا بصفين وقد*** لاقوا نكالا مؤثما

ص 48

وقالت ضبيعة بنت خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ترثي أباها:

عيني جودي على خزيمة بالدمع*** قتيل الأحزاب يوم الفرات

قتلوا ذا الشهادتين عتوا*** أدرك الله منهم بالترات

قتلوه في فتية غير عزل*** يسرعون الركوب في الدعوات

نصروا السيد الموفق ذا العد*** ل ودانوا بذلك حتى الممت

لعن الله معشرا قتلوه*** ورماهم بالخزي والآفات

قال نصر بن مزاحم:وحدثنا عمر بن سعد عن الأعمش قال: كتب معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري صاحب منزل رسول الله وكان سيداً معظماً من سادات الأنصار ومن شيعة عليّ (عليه السلام) كتاباً، وكتب إلى زياد بن سمية. وكان عاملاً لعلي بن أبي طالب على بعض فارس كتاباً ثانياً. فأما كتابه إلى أبي أيوب فكان سطرا واحداً (حاجتك لا تنسى الشيباء أبا عذرها ولا قاتل بكرها) فلم يدر أيوب ما هو!؟ فأتى به عليّاً فقال: يا أمير المؤمنين ان معاوية كهف المنافقين كتب إليَّ بكتاب لا أدري ما هو؟

قال عليّ (عليه السلام) فأين الكتاب؟ فدفعه إليه فقرأه وقال: نعم، هذا مثل ضربه لك، يقول لا تنسى الشيباء أبا عذرها. والشيباء المرأة البكر ليلة افتضاضها لا تنسى بعلها الذي افترعها أبداً ولا تنسى قاتل بكر وهو أول ولدها, وكذلك أنا لا أنسى قتل عثمان.

وأما الكتاب الذي كتبه إلى زياد، فإنه كان وعيداً وتهديداً فقال زياد ويلي على معاوية كهف المنافقين وبقية الأحزاب يتهددني ويتوعدني وبيني وبينه ابن عم محمّد ومعه سبعون ألفاً سيوفهم على عواتقهم يطيعون

ص 49

في جميع ما يأمرهم به لا يلتفت رجل منهم وراءه حتى يموت. أما والله لو نظرتم ثم خلص إليَّ ليجدني أحمر ضراباً بالسيف(45).

قال نصر بن مزاحم أيضاً: وروى عمرو بن شمران ان معاوية في أسفل كتابه إلى أبي أيوب:

ما بلغ لديك أبا أيوب مالكة*** أنا وقوفك مثل الذنب والنقد

أما قتلتم أمير المؤمنين فلا*** ترجو الهوادة منا آخر الأبد

ان الذي نلتموه ظالمين له*** أبقت حزازته صدعاً على كبدي

إني حلفت يميناً غير كاذبة*** لقد قتلتم إماماً غير ذي أود

لا تحسبوا إنني أنسى مصيبته*** وفي البلاد من الأنصار من أحد

ان العراق لنا فقع بقرقرة*** أو شحمة برزها شاءو ولم يكد

والشام ينزلها الأبرار بلدتها*** أمن، وبيضتها عريسة الأسد

فلما قرأ الكتاب على عليّ (عليه السلام) لشد ما شحذكم معاوية يا معشر الأنصار أجيبوا الرجل، فقال أبو أيوب: يا أمير المؤمنين إني ما أشاء أن أقول شيئاً من الشعر يعبأ به الرجال إلاّ قلته فقال فأنت اذن أنت. فكتب أبو أيوب إلى معاوية: أما بعد فإنك كتبت (لا تنسى الشيباء أبا عذرها ولا قاتل بكرها) فضربتها مثلاً بقتل عثمان، وما نحن وقتل عثمان ان الذي تربص بعثمان وثبط يزيد بن أسد وأهل الشام عن نصرته لأنت وان الذين قتلوه لغير الأنصار وكتب في آخر كتابه:

لا توعدنا ابن حرب اننا نفر*** لا ينبغي ود ذي البغضاء من أحد

واسعوا جميعاً بني الأحزاب كلكم*** لسنا نريد رضاكم آخر الأبد

نحن الذين ضربنا الناس كلهم*** حتى استقاموا وكانوا عرضة الأود

والعام قصرك منا ان ثبت لنا*** ضرب يزيل بين الروح والجسد

اما عليّ فإنا لا نفارقه*** ما رفرف الآل في الدوية الجرد

اما تبدلت منا بعد نصرتنا*** دين الرسول أناسا ساكني الجند

لا يعرفون افعل الله سعيهم*** الا اتباعكم يا راعي النقد

فقد بغى الحق هضما شر ذي كلع*** واليحصبيون طرا بيضة البلد(46)

قال نصر بن مزاحم حدثنا عمرو بن شمر قال حدثني مجالد عن الشعبي عن زياد بن النضر الحارثي قال: شهدت مع عليّ (عليه السلام) حرب صفين فاقتتلنا مرة ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح ونفذت السهام. ثم صرنا إلى المسابقة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضا. ولقد قاتلت ليلتئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلاّ قاتلت به حتى تحاثينا بالتراب يرمي أحدنا وجه الآخر وتكادمنا بالأفواه حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا إلى بعض ما يستطيع أحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه... ولا يقاتل فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف، وغلب

عليّ (عليه السلام) على القتلى فلما أصحب اقبل على أصحابه يدفنهم وقد قتل كثير منهم، وقتل من أصحاب معاوية أكثر

بكثير وقتل فيهم شمر بن أبرهة(47).

قال: وحدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن تيم، قال: والله إني لمع عليّ (عليه السلام) إذ أتاه علقمة بن زهير الأنصاري فقال: يا أمير المؤمنين ان عمرو بن العاص يرتجز في الصف بشعرا فأسمعه اياك.

قال: نعم. قال: انه يقول:

إذا تخازرت وما بي من حرز*** ثم كسرت العين من غير عور

الفيتني الوى بعبد المستمر*** ذا صولة في المصمئلات الكبر

أحمل ما حملت من خير وشر*** كالحبة الصماء في أصل الحجر

فقال عليّ (عليه السلام) اللهم العنه فإن رسول الله عنه، فقال علقمة وانه يا أمير المؤمنين يرتجز برجز آخر فأنشدك إياه قال: قل. فقال:

أنا الغلام القرشي المؤتمن*** الماجد الأبلح ليث كالشطن

ترضى بي الشام إلى أرض عدن*** يا قادة الكوفة يا أهل الفتن

أضربكم ولا أرى أبا الحسن*** كفى بهذا حزنا على حزن

فضحك عليّ (عليه السلام) وقال: أنه لكاذب، وانه بمكاني هذا لعالم كما قال العربي غير الوهي الممزق ترقعين وأنت مبصرة؟ -

وفي اليوم السادس عشر من أيام صفين أرسل الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) رجلاً من فرسان جيشه إلى معاوية بن أبي سفيان أن أبرز لي في وسط الميدان ونترك عساكرنا جانباً فأينا قتل صاحبه بقيت شؤون المسلمين

جميعها مجموعة للآخر. ولما أبلغ الرجل رسالة الإمام (عليه السلام) إلى معاوية قال: (عمرو بن العاص) لمعاوية لقد أنصفك ابن أبي طالب، فقال معاوية (أنا أبارزه وهو الشجاع الأخرق) أظنك يا عمرو طمعت فيها؟

فانصرف الرجل إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وأخبره بما دار، فقال الإمام (عليه السلام): وانفساه، أيطاع معاوية وأخيب أنا معه فيما أقترح عليه.

فما هو بتارك صقع المندان بعساكره ولا هو يبارزني وهو يلمع في السيطرة على مصائر المسلمين بحجة المطالبة بدم عثمان بن عفان والمسلمون يتساقطون قتلى وهو لا ينفك يثير عساكره بالمطالبة بدم عثمان.

ولما انصرف رسول الإمام (عليه السلام) إلى ناحية عسكره نظر عمرو بن العاص نحن جيش عثمان في الميدان فرأى القتال قائماً على أشده ولا سيما في بقعة ثائرة القترة فقال عليّ من هذا الرهج الساطع؟ قالوا: على ابنيك عبد الله ومحمّد ليثيروا فيه عواطفه ومشاعره على ابنيه عبد الله بن العاص ومحمّد بن عمرو بن العاص فارتبك أشد الارتباك وصاح لخادمه وردان يا وردان قدم لوائي. فقال معاوية ليس على ابنبك بأس فلا تربك صفوف جيشنا فأجاب ابن العاص هيهات هيها.

الليث يحمي شبليه*** ما خيره بعد ابنيه

وتوجه إلى الميدان فجاءه رسول معاوية ليبلغه ألا يحمل على الميدان فقال : قل له: انك لم تلدهما وإني أنا ولدتهما وحينما قارب مشارف الميدان أخبروه أن ولديه في مكان أمين وطمأنه وردان على ملامتهما. حينذاك أمر عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أهل الكوفة وأهل البصرة أن احملوا فحمل الناس من كل جانب واقتتلوا قتالاً شديداً وخرج رجل من أهل الشام وقال من يبارز؟ فبرز إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا ساعة

وضرب العراقي الشامي(48) على رجله فأسقط قدمه فقاتل ولم يسقط الشامي فرجع إليه العراقي فأسقط يده فرمى الشامي حينئذ سيفه إلى أهل الشام وقال: استعينوان به على قتال عدوكم فاشتراه معاوية من أوليائه بعشرة الاف درهم من المسلمين(49) قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين ص 444 و445 كان عليّ (عليه السلام) إذا أراد الحملة هلل وكبر ثم قال:

من أي يومي من الموت أفر*** أيوم لم يقدر أو يوم قدر

فجعل معاوية لواءه الأعظم في ذلك اليوم مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فأمر عليّ (عليه السلام) جارية بن قدامة السعدي أن يلقاه بأصحابه وأقبل عمرو بن العاص حينذاك في خيل ومعه لواء ثان فتقدم حتى خالط صفوف العراق، فقال الإمام (عليه السلام) لابنه محمّد: امش نحو هذا اللواء رويدا رويداً حتى إذا أشرعت الرماح في صدورهم فأمسك يدك حتى يأتيك أمري. ففعل. وكان الإمام (عليه السلام) أعد مثلهم مع الأشتر

النخعي، فلما أشرع محمّد الرماح في صدور القوم أمر عليّ (عليه السلام) الأشتر أن يحمل فحمل فأزالهم عن مواقفهم وأصاب منهم رجالاً واقتتل الناس قتالاً شديداً ، فقال النجاشي الشاعر في ذلك اليوم يذكر الأشتر:

ص 54

ولما رأينا اللواء العقاب*** يقحمه الشاتيء الاخزر

كليث العرين خلال العجاج*** وأقبل في خيله الأبتر

دعونا لها الكبش كبش العراق*** وقد أضمر الفشل العسكر

فرد اللواء على عقبه*** وفاز بخظوتها الأشتر

كما كان يفعل في مثلها*** إذا ناب معصوصب منكسر

قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين يحدثنا عمرو بن شمر عن السدي ان الناس قد اختلط أمرهم تلك الليلة، وزال أهل الرايات عن مراكزهم وتفرق أصحاب عليّ عنه إذ كان قد أتى ربيعة ليلاً يتفقدهم ويدور بينهم فأقبل (عدي بن حاتم) يبحث عن موقعه فأصابه بني رماح ربيعة فقال له: يا أمير المؤمنين: أما إذا كنت حياً فالأمر أمم. جئتك وما مشيت إلاّ على قتيل، وما أبقيت هذه الوقعة في هذا اليوم عميداً ماجداً فقاتل من هنالك منهم حتى يفتح الله عليك فإن في عساكرنا بقية محمودة. وأقبل الأشعث يلهث جزعاً مما غشيه من أجل أمير المؤمنين (عليه السلام) فلما راه هلل وكبر ودعاه إلى استئناف القتال وأن يرجع إلى المكان الذي تركوك واقفاً فيه... وبينما كانا يتحادثان بعث إليه (سعيد بن قيس الهمداني) سائلاً إياه ان كان يحتاج إلى امداد ليمده به فصرفه إلى سعيد بن قيس. ثم أقبل على ربيعة فقال أنتم درعي ورمحي فهاتوني بفرس رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) المرتجز – فركبه فلم يستجم بركوبه، ثم قال: بل البغلة بغلة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فقدمت له فركبها وتعصب بعمامة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكانت سوداء ثم نادى: أيها الناس من باع نفسه

ص 55

لله أفلح وإن لهذا اليوم ما بعده وها هم أعداؤكم قد مسهم الأعياء فانتهزوا اصلاح أمركم فأحاط به اثنا عشر ألف مقاتل بكامل أسلحتهم فهاجم بهم أعداءه وهو يرتجز:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا*** وأصبحوا في حربكم وبيتوا

حتى تنالوا النصر أو تموتوا*** او لا فإني طالما عصيت

قد قلتموا لو جئتنا فجيت*** ليس لكم ما شئتم وشيئت

وتعبه عدي بن حاتم وهو يرتجز:

أبعد عمار وبعد هاشم*** وابن بديل فارس الملاحم

نرجو البقاء حلم الحالم*** لقد عضضنا أمس بالاباهم

فاليوم لا تقرع سن نادم*** ليس امرؤ من حتفه بسالم

واشتدت عزيمة الأشتر فهجم وراءهما بجميع من معه من أهل العراق فلم يتركوا لأهل الشام صفوفهم متساندة ولا قائمة امامهم فاضطرب معاوية ودعا بفرسه لينجو عليه فسمع أصواتاً من قومه تدعوه إلى الثبات فأخرج قدمه من الركاب واستنجد بعمرو بن العاص وقال له ياعمرو بن العاص اليوم صبر وغدا فخرز فاجله قائلا انك وما أنت فيه كقول القائل:

ما علتي وانني لنابل*** والقوس فيها وتر عنابل

تزل عن صفحتها المعابل*** الموت حق والحياة باطل

فثنى رجله من الركاب واستصرخ بقبائل عك والأشعرين فوقفوا يحمونه ويدافعون عنه حتى كره المتقاتلون القتال وتحاجزوا من فرض الأعياء، وان

لهذه الوقعة حديث جدير بالذكر وها هو ذا؟ (لما انتهت معركة صفين وعاد معاوية إلى الشام حضر لديه رجل وقال له: ان لي عليك حقا؟ قال: ما هو؟ قال: أتذكر في يوم من أيام صفين استدعيت إليك فرسك لتهرب إذ رأيت عليّ بن أبي طالب ومالك الأشتر يوشكان أن يصلا إليك فدنوت أنا وأمسكت بعنان فرسك وقلت لك انه لوْم ومعابة أن تذهب وتترك هؤلاء العرب تجود بنفوسها أمامك مدى شهرين ولا تسمح أنت بنفسك ساعة؟ ثم أنشدت شعراً لا أحفظه وعدلت عن الهرب؟ فقال معاوية ويحك فأنت لأنت هو؟ والله ما أحلني هذا المحل إلاّ أنت وأمر له بثلاثين ألف درهم من خزينة المسلمين.

وروى النخعي عن ابن عباس قال: تعرض عمرو بن العاص لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) يوماً من أيام صفين وهو يحسب انه يغتاتله على حين غرة فحمل عليه الإمام عليّ (عليه السلام) فلم يجد لنفسه منجاة إلاّ أن ألقى بنفسه أرضاً وكشف عن عورته فصرف عنه الإمام وجهه ورجع عمرو بن العاص إلى معاوية فسأله ما صنعت؟ قال لقيني (عليّ) فصرعني. قال معاوية فأحمد عورتك على سلامتك.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا عمر بن سعد فقال: لما اشتد الأمر وعظم أهل الشام قال معاوية لأخيه عتبة بن أبي سفيان ألق الأشعث فانه ان رضي رضيت العامة، فخرج عتبة فنادى الأشعث، فقال الأشعث: سلوا من هو

المنادي؟ قالوا: انه عتبة بن أبي سفيان، قال غلام مترف: ولابدّ من لقائه. فخرج إليه فقال: ما عندك يا عتبة؟ فقال: أيها الرجل، ان معاوية لو كان لاقياً رجلاً غير عليّ للقيك انك رأس أهل العراق، وسيد أهل اليمن، وقد سلف إليك عثمان ما سلف من الصهر والعمل، ولست كأصحابك وأما الأشتر فقتل عثمان، وأما عدي فحرض عليه، وأما سعيد بن قيس فقلد عليّاً ديته، وأما شريح وزحر بن قيس فلا يعرفان غير الهوى وانك حاميت عن أهل العراق

ص 57

تكرما، وحاربت أهل الشام حمية وقد بلغنا منك وبلغت منا ما أردت، وأنا لا أدعوك إلى ترك عليّ، ونصرة معاوية، ولكنا ندعوك إلى البقية الباقية التي فيها صلاحك وصلاحنا فتكلم الأشعث فقال: يا عتبة أما قولك: ان معاوية لا يلقى إلاّ عليّاً، فلو لقيني والله لما عظم مني ولا صغرت عنه وان أحب أن أجمع بينه وبين عليّ فعلت، وأما قولك (إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن) فإن الرأس المتبع والسيد المطاع هو عليّ بن أبي طالب وأما الذي سلف من عثمان إليَّ فوالله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله عزاً، وأما عيبك أصحابي فإنه لا يقربك مني ولا يباعدني عنهم، وأما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بيتاً حماه. وأما البقية فلستم بأحوج إليها منا وسنرى رأينا فيها.

فلما عاد عتبة إلى معاوية وأبلغه قوله، قال له: لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه وإن كان قد جنح للسلم وشاع في أهل العراق ما قاله عتبة للأشعث وما رده الأشعث عليه فقال النجاشي بمدحه:

يابن قيس وحارث ويزيد*** أنت والله رأس أهل العراق

أنت والله حية تنفث السم*** قليل منها غنا الراقي

أنت كالشمس والرجال نجوم*** لا يرى ضوؤها مع الأشراق

قد حميت العراق بالأسل السمر*** وبالبيض كالبروق الرقاق

وسعرت القتال في الشام بالبيض*** المواضي وبالرماح الدقاق

لا ترى غير أذرع وأكف*** ورؤوس بهامها الأفلاق

ص 58

كلما قلت قد تصرمت الهيجا*** سقيتهم بكأس دهاق

قد قضيت الذي عليك من لاحق*** وسارت به الفلاس المناقي

أنت حلو من تقرب باللود*** وللشاتئيين مر المذاق

بئسما ظنه ابن هند ومن مثلك*** في الناس عند ضيق الخناق

قال نصر بن مزاحم: فقال معاوية لما يئس من جهة الأشعث لعمرو بن العاص ان رأس الناس بعد عليّ هو عبد الله بن عباس فلو كتب إليه كتاباً لعلك ترفقه ولعله لو قال شيئاً لم يخرج عليّ منه، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل إلى العراق إلاّ بهلاك أهل الشام، فقال عمرو ان ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه لطمعت في عليّ، قال معاوية على ذلك فاكتب، فكتب عمرو إليه:

أما بعد، فإنّ ألذي نحن فيه وأنتم ليس بأول أمر قاده البلاد وأنت رأس هذا الجمع بعد عليّ، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوالله ما أبقيت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا فاعلم انّ الشام لا تهلك إلاّ بهلاك العراق وإن العراق لا يهلك إلاّ بهلاك الشام فما خيرنا بعد هلاك أعدادهما، ولسنا نقول: ليت الحرب عادة ولكنا نقول: ليتها لم تكن، وان فينا من يكره اللقاء، كما ان فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع ومأمور مطيع أو مؤمن مشاور وهو أنت وأما الأشتر الغليظ الطبع.. القاسي القلب فليس بأهل أن يدعى في الشورى ولا في خواص أهل النجوى، وفي أسفل الكتاب كتب هذا الشعر(50):

طال البلاء وما يرجى له آس*** بعد الإله سوى رفق ابن عباس

قولا له قول من يرجو مودته*** لا تنس حظك ان الخاسر الناس

انظر فدى لك قبل قاصمة*** للظهر ليس لها راق ولا آس

ان العراق وأهل الشام لن يجدوا*** طعم الحياة مع المستغلق القاسي

يا ابن الذي زمزم سقيا الحجيج له*** أعظم بذلك من فخر على الناس

إني أرى الخير في سلم الشام لكم*** والله يعلم ما بالسلم من باس

فيها التقى وامور ليس يجهلها*** إلاّ الجهول، وما نوكى كأكياس

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس عرضه على أمير المؤمنين (عليه السلام) فضحك وقال: قاتل الله ابن العاص ما أغراه بك يا عبد الله. أجبه وليرد عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر، فكتب ابن عباس إلى عمرو:

أما بعد، فإني لا أعلم أحداً من العرب أقل حياء منك، انه مال بك معاوية إلى الهوى فبعته دينك بالثمن اليسير، ثم خبطت الناس في عشوة طمعاً في الدينا فأعظمتها باعظام أهل الدنيا ثم تزعم انك تتنزه عنها تنزه أهل الورع، فإن كنت صادقاً فارجع إلى بيتك، ودع الطمع في مصر، والركون إلى الدنيا الفانية واعلم ان هذه الحرب ما معاوية فيها كعليّ... بدأها عليّ بالحق وانتهى فيها إلى العذر، وبدأها معاوية بالبغي فانتهى فيها إلى

السرف. وليس أهل العراق فيها كأهل الشام بايع أهل العراق عليّاً وهو خير منهم. وبايع أهل الشامع معاوية وهم خير منه. ولست أنا وأنت فيها سواء، إني أردت الله، وأنت أردت مصر وقد عرفت الشيء الذي باعدك عني، ولا

ص 60

أعرف الشيء الذي قربك من معاوية فإن ترد شراً لا نسبقك به، وان ترد خيراً لاستبقنا إليه والسلام. ثم دعا أخاه الفضل بن عباس فقال: يا ابن أم: أجيب عمرا، فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من مكر ووسواس*** فاذهب فليس نداء الجهل من آس

ألا تواتر طعن في نحوركم*** يشجي النفوس ويشفي نحوه الرأس

اما عليّ فاز الله فضله*** بفضل ذي شرف عال على الناس

ان تعقلوا الحرب نعقلها مخية*** أو تبعثوها فانا غير انكاس

قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة*** هذا بهذا وما بالحق من بأس

ثم عرض الشعر والكتاب على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له: لا أراه يجيبك بعدها أبداً بشيء ان كان يعقل وإن عاد عدت عليه. فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص عرضه على معاوية فقال: ان قلب ابن عباس وقلب عليّ واحد، وكلاهما ولد عبدالمطلب. وإن كان قد خشن فقد لان، وإن كان قد تعظم أو عظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم.

وقال معاوية لأكتبن إلى ابن عباس كتاباً استعرض فيه عقله وانظر ما في نفسه فكتب إليه:

أما بعد فإنكم معشر بني هاشم لستم إلى أحد أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار ابن عفان، حتى أنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما دمه واستعظامهما ما نيل منه، فإن كان ذلك منافسة لبني أمية في السلطان فقد وليها عدي وتيم، فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة، وقد وقع من الأمر ما ترى، وأكلت هذه الحروب بعضها بعضاً حتى استوينا فيها فما يطمعكم

ص 61

فينا يطمعنا فيكم وما يؤنسنا منكم يؤنسكم منا، ولقد رجونا غير ما كان، وخشينا دون ما وقع، ولست ملاقينا اليوم بأحد من حد أمس، ولا غدا بأحد من حد اليوم، وقد قنعنا بما في أيدينا في ملك الشام فاقتنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وأبقوا على قريش، فإنّما بقي من رجالها ستة، رجلان في الشام ورجلان في العراق ورجلان في الحجاز، فأما اللذان في الشام فأنا وعمرو، وأما اللذان في العراق فأنت وعلي، وأما اللذان في

الحجاز فسعد وابن عمر، فأنا من السنة ناصبان لك واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى عليّ.

فلما وصل الكتاب إلى ابن عباس أسخطه وقال: حتى مني يخطب ابن هند إلى عقلي وحتى متى اجمجم على ما في نفسي؟ وكتب إليه:

أما بعد، فقد أتاني كتابك... وقرأته، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة إلى أنصار ابن عفان وكراهتنا لسلطان بني أمية فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره حتى صرت إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان... وهو الوليد بن عقبة، وأما طلحة والزبير فإنهما أجليا عليه وضيقا خناقه، ثم خرجا ينقضان البيعة ويطلبان الملك فقاتلناهما على النكث كما قاتلناهما على البغي، وأما قولك: انه لم يبق من قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ولم يخذلنا إلاّ من خذلك، وأما اغراؤك أبانا بعدي وتيم فإن أبا بكر وعمر خير من عثمان كما ان عثمان خير منك، وقد بقي لك منا ما ينسيك ما قبله وتخاف ما بعده، وأما قولك لو بايع الناس لي لاستقاموا، فقد بايع الناس عليّاً وهو خير مني فلم يستقيموا له، وما

أنت والخلافة يا معاوية، وإنما أنت طليق وابن طليق، والخلافة للمهاجرين الأولين وليس الطلقاء منها في شيء والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى معاوية قال: هذا عملي بنفسي لا أكتب والله إليه كتاباً سنة كاملة وقال:

دعوت ابن عباس إلى جل حظه*** وكان امرءا أهدى إليه رسائلي

فأخلف ظني والحوادث جمة*** وما زاد ان أغلى عليه مراجلي

فقل لابن عباس: أراك مخوفا*** بجهلك حلمي انني غير غافل

فابرق وارعد ما استطعت فإنني*** إليك بما يشجيك سبط الأنامل(51)

وقال نصر بن مزاحم: حدثنا عمر بن سعد، قال: عقد معاوية يوماً من أيام صفين الرياسة على اليمن من قريش – قصد بذلك أكرمهم ورفع منازلهم وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومحمّد وعتبة ابنا أبي سفيان وبسر بن أبي أرطاة وذلك في الوقعات الأولى من صفين فكدر ذلك أهل اليمن فأرادوا أن لا يناصر عليهم أحد إلاّ منهم فقام إليه عبد الله بن الحارث السكوني وهو رجل من كندة، فقال : أيها الأمير إني قد قلت شيئاً فأسمعه وضعه مني على النصيحة، قال: هات، فأنشده:

معاوى أحييت فينا الأحسن*** وأحدثت بالشام ما لم يكن

عقدان لبسر وأصحابه*** وما الناس حولك إلاّ اليمن

فلا تخلطن بنا غيرنا*** كما شبيب بالماء صفو اللبن

وإلاّ فدعنا على حالنا*** فانا وانا إذا لم نهن

ستعلم ان جاس بحر العراق*** وأبدى نواجذه في الفتن

وشد عليّ بأصحابه*** ونفسك إذ ذاك عند الذقن

بأنا شعارك دون الدثار*** وانا الرماح وانا الجنن

وانا السيوف، وانا الحتوف*** وانا الدروع وانا المجن

قال: فبكى معاوية متظاهراً بالتأثر ونظر إلى وجوه أهل اليمن، وقال: أعز رضاكم يقول ما قال؟ قالوا لا مرحبا بما قال... إنما الأمر إليك، فاصنع ما احببت فقال معاوية: إنما خلطت بكم أهل ثقتي، وما كان لي فهو لكم، ومن كان لكم فهو لي فرضي القوم وسكتوا. ولما بلغ أهل الكوفة مقال عبد الله بن الحارث لمعاوية فيمن عقد له من رؤوس أهل الشام قال الأعور الشنى إلى عليّ بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين أنا لا نقول لك كما قال صاحب أهل الشام لمعاوية ولكن تقول: زاد الله في سرورك وهداك، نظرت بنور الله، فقدمت رجالاً وأخرت رجالاً عليك أن تقول، وعلينا أن نفعل، أنت الإمام فإن هلكت فهذان ولداك من بعدك، يعني حسناً وحسيناً عليهما السلام وقد قلت شيئاً فأسمعه، قال: هات فأنشده:

أبا حسن أنت شمس النهار*** وهذان في الحادثات القمر

وأنت وهاذان حتى الممات*** بمنزلة السمع بعد البصر

وأنتم أناس لكم سورة*** تقصر عنها أكف البشر

يخبرنا الناس عن فضلكم*** وفضلكم اليوم فوق الخبر

عقدت لقوم أولي نجدة*** من أهل الحياء وأهل الخطر

مساميح بالموت عند اللقا*** ء منا واخواننا من مضر

ومن حي ذي يمن جلة*** يقيمون في النائبات الصعر

فكل يسرك في قومه*** ومن قال: لا، فبفيه الحجر

ونحن الفوارس يوم الزبير*** وطلحة إذ قيل أودى عذر

ضرناهم قبل نصف النهار*** إلى الليل حتى قضينا الوطر

ولم يأخذ الضرب إلاّ الرؤوس*** ولم يأخذ الطعن إلاّ الثغر

فنحن أولئك في أمسنا*** ونحن كذلك فيما غبر

وقال نصر بن مزاحم: حدثنا عمر بن سعد فقال: لما تعاظمت الأمور على معاوية قبل مقتل عبد الله بن عمر بن الخطاب، دعا عمرو بن العاص وبسر بن أبي أرطاة وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فقال لهم:

انه قد غمني مقام رجال من أصحاب عليّ، منهم سعيد بن قيس الهمداني في قومه، والأشتر النخعي في قومه، والمرقال في بني زهرة، وعدي بن حاتم

في بني طيء ، وقيس بن سعد في الأنصار، وقد علمتم ان بما نيتكم وقتكم غير وقاية بأنفسنا أياما كثيرة، حتى لقد استحييت لكم وأنتم عدتهم من قريش، وأنا أحب أن يعلم الناس انكم أهل غناء وقد عبأت لكل رجل منهم رجلاً منكم ، فاجعلوا ذلك إليَّ قالوا ذاك إليك، قال: فأنا أكفيكم غدا سعيد بن قيس وقومه وأنت يا عمرو للمرقال أعور بني زهرة، وأنت يا بسر لقبس بن سعيد، وأنت يا عبيد الله للأشتر النخعي.

وأنت يا عبد الرحمن لأعور طيء، يعني عدي بن حاتم وقد جعلتها نوبا في خمسة أيام لكل رجل منكم يوم، فكونوا على أعنة الخيل! قالوا: نعم فأصبح معاوية في غده فلم يدع فارساً إلاّ حشده، ثم قصد همدان بنفسه وارتجز فقال:

لن تمنع الحرمة بعد العام*** بين قتيل وجريح دام

سأملك العراق بعد الشام*** أنعى ابن عفان مدى الأيام

فطعن في عرض الخيل ملياً، ثم ان همدان تنادت بشعارها، وأقحم سعيد بن قيس فرسه على معاوية واشتد القتال، وكاد سعيد أن يقتنص معاوية إلاّ انه اندس بين خيل أصحابه وراء الغبار الكثيف، وقال سعيد في ذلك:

يالهف نفسي فاتني معاوية*** فوق طمر كالعقاب هاوية

والراقصات لا يعود ثانية

قال نصر: وانصرف معاوية ذلك اليوم ولم يصنع شيئاً وغدا عمرو بن العاص في اليوم الثاني في حماة الخيل فقصد المرقال وكان حاملاً لواء عليّ (عليه السلام) وهو اللواء الأعظم في حياة الناس فارتجز عمرو ابن العاص:

لا عيش ان لم ألق يوماً هاشما*** ذاك الذي جشمني المجاشما

ذاك الذي يشتم عرضي ظالما*** ذاك الذي ان ينج مني سالما

يكن شجى حتى الممات لازما

فطعن في أعراض الخيل مزيدا، وحمل المرقال عليه وارتجز فقال:

لا عيش ان لم ألق يوما عمرا*** ذاك الذي أحدث فينا الغدرا

أو يبدل الله بأمر أمرا*** لا تجزعي يا نفس صبرا صبرا

ضربا هذا ذيك وطعنا شزرا*** يا ليث ما تجني يكون القبرا

فطاعن عمرا حتى رجع، وانصرف الفريقان بعد شدة القتال ولم يسر معاوية ذلك وغدا بسر بن أبي أرطاة في اليوم الثالث عن حماة الخيل فلقي قيس بن سعد بن عبادة في كمأة الأنصار فاشتدت الحرب بينهما وبرز قيس كأنه فتيق مقرم يرتجز ويقول:

أنا بن سعد زانه عباده*** والخزرجيون كماة سادة

ليس فراري بالوغى بعاده*** ان الفرار للفتى قلادة

يا ربّ أنت لقني الشهادة*** فالقتل خير من عناق غادة

حتى متى تثني لي الوسادة

وطاعن سعد خيل بسر وبرز بسر فارتجز:

أنا ابن أرطاة العظيم القدر*** مردد في غالب وقهر

ليس الفرار من طباع بسر*** ان أرجع اليوم بغير وتر

وقد قضيت في العدو نذري*** يا ليت شعري كم بقي من عمري

ويطعن بسر قيساً، ويضربه قيس بالسيف فرده على عقيبه، ورجع

ص 67

القوم جميعاً ولقيس الفضل، وتقدم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في اليوم الرابع لم يترك فارساً مذكوراً إلاّ جمعه إليه واستكثر ما استطاع، فقال معاوية: انك تلقى أفعى العراق، فارفق واتئد، فلقيه الأشتر أمام الخيل مزبدا، وكان الأشتر إذا أراد القتال أزبد، وهو يرتجز قائلاً:

يا ربّ قيض لي سيوف الكفرة*** واجعل وفاتي بأكف الفجرة

فالقتل خير من ثياب الحبرة*** لا تعدل الدنيا جميعا وبره

ولا يعوضا في ثواب البرره

وشد على خيل الشام فردها، فاستحيا عبيد الله وبرز أمام الخيل وكان فارساً شجاعاً وقال:

أنعى بن عفان وارجو ربّي*** ذاك الذي يخرجني من ذنبي

ذاك الذي يكشف عني كربي*** ان ابن عفان عظيم الخطب

يأبى له حبي بكل قلبي*** الا طعاني دونه وضربي

حسبي الذي أنويه حسبي حسبي

فحمل عليه الأشتر وطعنه، فاشتد الأمر، وانصرف القوم وللأشتر الفضل فغم ذلك معاوية وغدا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في اليوم الخامس وكان رجاء معاوية ان ينال حاجته فقواه بالخيل والسلاح وكان معاوية يعده ولدا. فلقيه عدي في كماة مذحج وقضاعة فبرز عبد الرحمن أمام الخيل وقال:

ص 68

قل لعدي ذهب الوعيد*** انا ابن سيف الله لا مزيد

وخالد يزينه الوليد*** ذاك الذي قيل له الوحيد

ثم حمل فطعن الناس، فقصده عدي بن حاتم وسدد إليه الرمح وقال:

أرجو إلهي وأخاف ذنبي*** ولست أرجو غير عفو ربّي

يا ابن الوليد بغضكم في قلبي*** كالهضب بل فوق قنال الهضب

فلما كاد أن يخالطه بالرمح توارى عبد الرحمن في العجاج واستتر بأسنة أصحابه واختلط القوم، ثم تحاجزوا ورجع عبد الرحمن مقهوراً وانكسر معاوية وبلغ أيمن بن خزيم ما لقي معاوية وأصحابه... فشمت بهم وكان ناسكاً من أنسك أهل الشام، وكان معتزلاً للحرب منفرداً في ناحية عنها، فقال:

معاوى ان الأمر لله وحده*** وانك لا تستطيع ضراً ولا نفعا

عبأت رجالاً من قريش لعصبة*** بما نية لا تستطيع لها دفعا

فكيف رأيت الأمر إذ جد جده*** لقد زارك الأمر الذي جئته جدعا

تعي لقيس أو عدي بن حاتم*** والأشتر باللناس أعمارك الجدعا

وتجعل للمرقا ل عمراً وانه*** لليث لفي من دون غايته ضبعا

وان سعيداً إذ برزت لرمحه*** لفارس همدان الذي يشعب الصرعا

ملي يضرب الدار عين بسيفه*** إذ الخيل أبدت من سنابكها نقعا

رجع فلم تظفر بشيء تريده*** سوى فرس أعيت وأبت بها ظلما

فدعهم فلا والله لا تستطيعهم*** مجاهرة فاعمل لقهرهم خدعا

قال: ان معاوية أظهر لعمرو شماتة وجعل يقرعه ويوبخه وقال: لقد أنصفتكم إذ لقيت سعيد بن قيس في همدان وفررتم وانك لجبان يا عمرو فغضب عمرو وقال: فهلا برزت إلى عليّ بن أبي طالب إذ دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم وقال:

تسير إلى أين ذي يزن سعيد*** وتترك في العجاجة من دعاكا

فهل لك في أبي حسن عليّ*** لعل الله يمكن من قفاكا

دعاك إلى البراز فلم تجبه*** ولو نازلته تربت يداكا

وكنت اسم إذ ناداك عنها*** وكان سكونه عنها مناكا

فآب الكبش قد طحنت رحاه*** بنجدته وما طحنت رحاكا

فما أنصفت صحبك يا ابن هند*** أتفرقه وتغضب من كفاكا

فما والله ما اضمرت خيرا*** ولا أظهرت لي إلاّ هواكا

قال: ان القرشين استحبوا ما صنعوا وشمت بهم اليمانية من أهل الشام فقال معاوية: يا معشر قريش والله لقد قربكم لقاء القوم إلى الفتح، ولكن لا مرد لأمر الله، ولم تستحيون؟ انما لقيتم كباش العراق فقتلتم منهم وقتلوا منكم وما لكم عليَّ من حجة. لقد عبأت نفسي لسيدهم وشجاعهم سعيد بن قيس، فانقطعوا عن معاوية أياماً فقال معاوية في ذلك:

لعمري لقد انصف والنصف عادتي*** وعاين طعنا في العجاج المعاين

ولولا رجائي أن تثوبوا بنهرة*** وان تغسلوا عاراً وعته الكنائس

لناديت للهجيا رجالاً سواكم*** ولكنما تحمي الملوك البطائن

ص 70

أتدرون من لاقيتم فل جيشكم*** لقيتم ليوثاً أصحرتها العرائن

لقيتم صناديد العراق ومن بهم*** إذا جاشت الهيجاء تحمي الضعائن

وما كان منكم فارس دون فارس*** ولكنه ما قدر الله كائن(52)

فلما سمع القوم ما قاله معاوية، أتوه فاعتذروا إليه اعتذاراً شاملاً واستقاموا إليه عما ما يحب إليه ولما اشتد القتال وعظم الخطب أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص ان قدم عكا والأشعريين إلى من بازائهم فأجابه عمرو ان بأزاء عك همدان فبعث إليه ان قدم عكا. فأتاهم عمرو فقال: يا معشر عك : إن عليّاً قد عرف انكم حيّ أهل الشام فعبأ لكم حي أهل العراق همدان، فاصبروا وهبوا إليَّ جماجمكم ساعة من النهار فقد بلغ الحق مقطعه فقال ابن مسروق العكي: أمهلني حتى أتي معاوية، فأتاه فقال يا معاوية: اجعل لنا فريضة ألفين رجل في ألفين ألفين، ومن هلك فأبن عمه مكانه – لنقر اليوم عينك، فقال لك ذلك، فرجع ابن مسروق إلى أصحابه فأخبرهم الخبر فقالت عك، نحن لهمدان، ثم تقدمت عك ونادى سعيد بن قيس(53) يا همدان... ان تقدموا، فشدت همدان على عك رجالة فأخذت السيوف أرجل عك فنادى ابن مسروق يا لعك بركا كيرك الكمل. فبركوا تحت الحجف (الأفراس) فشجرته همدان بالرماح وتقدم شيخ من همدان وهو يقول:

يا لتبكيل لخمها وحاشد*** نفسي فداكم طاعنوا وجالدوا

حتى تخر منكم الفما حد (إلى الرقاب)*** وارجل يتبعها سواعد

ص 71

بذاك أوصى جدكم والوالد

وقام رجل من عك فارتجز فقال:

تدعون همدان وتدعو عكا*** بكوا الرجال بالعك بكا

ان خدم القوم فبركا بركا*** لا تدخلوا اليوم عليكم شكا

قد محك القوم فزيدوا محكا

فالتقى القوم جميعاً بالرماح وصاروا إلى السيوف وتجالدوا حتى أدركهم الليل فقالت همدان يا معشر عك: نحن نقسم بالله اننا لا ننصرف حتى تنصرفوا. وقالت عك مثل ذلك فأرسل معاوية إلى عك أبروا قسم أخوتكم

وهلموا. فانصرفت عك فلما انصرفت همدان فقال عمرو بن العاص يا معاوية، والله لقد لقيت أسد أسدا، ولم أر والله كهذا اليوم قط.

كانت معركة صفين في أيامها كلها وبالاً عسكرياً واجتماعياً وسياسياً على الأمة الإسلامية في كل مكان، فلقد ثار معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عليّ بن أبي طالب في بلاد الشام زاعماً انه يثأر من دون بقية الأمة الإسلامية لمقتل عثمان بن عفان وكان في خلال زعمه هذا يراقب من بعيد عاقبة الثورة السريعة التي شرع بايقادها طلحة والزبير وعائشة في البصرة ولكن لما ان بلغه فشلها ومقتل طلحة والزبير وانصراف عائشة إلى (مدينة يثرب) استدرك حينذاك سوء مصيره المحتمل ان لم يكن محققا فشرع ينادي بالنكير والثبور على قاتل عثمان، زاعماً بأنهم من أعوان الخليفة الجديد عليّ بن أبي طالب صاحب السلطة الإسلامية العامة يومذاك، فجمع بذلك حواليه ثمانين ألف مقاتل من بين أقربائه وأنداده وغيرهم من المسلمين

الآخرين. وفتح لهم خزانة أموال المسلمين فتحاً باذخاً وهو ينادي على رؤوسهم بالويل والتحريض والانتقام لمقتل عثمان بن عفان، ثم سار بجميعهم نحو الكوفة (مقر الخلافة الإسلامية الجديد)، وإذ وصل بقاع صفين أقام معسكره على شاطئ الفرات يتجيذ من عمر بن العاص. فأقبل الخليفة عليّ بن أبي طالب بجيشه ليصرفه عن قصده الباطن صيانة لحرمة الخلافة الإسلامية وتحذيراً مشروعاً لمعاوية ولغيره من المجامشين ألا يستهينوا بمقام الخلافة، أو يتجزأوا في مستقبل الأيام على استضعافها طمعاً في الاستيلاء عليها وعلى خزانة أموالها والتحكم في رقاب المسلمين، وهكذا دواليك شرع القتال فعلاً بين الجيشين في بداية ذي الحجة من السنة السادسة والثلاثين بعد الهجرة ولم يكن معاوية ليجرؤ في ظاهره وباطنه على مواجهة الخليفة عليّ بن أبي طالب في صفين لاستعراض مقتل عثمان وتعين أشخاص القتلة أينما كانوا أو يكونون.

والذي يجب ذكره في هذا الصدد ان معاوية بن أبي سفيان لم يكن قد بايع الخليفة كبيعة غيره من سائر المسلمين ليستقيم له شرعاً أن يحضر مع أولئك المسلمين المزعومين جناة أو مجرمين أمام جماهير مسلمة ليتم أمامها تحديد المسؤولية الجنائية بالضبط والصدق أما ان المسؤوولية الجنائية لم تتحدد بعد ولم يتقدم يومذاك مطالبون حقيقيون أو تدعون أمناء بأجراء التحقيق فيها فإن أمرها الواسع الأطراف يبقى منقوص الأسانيد وقابلاً للمراء والطعن في أركانها بعد حين.

ولقد طالما تقدم الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في الميدان نحو معاوية بن أبي سفيان وعرض عليه اجراء التحقيق جهاراً نهاراً في صفين بحضوره وحضور جيشه أجمعين أو البروز إليه توكيداً وتفاضلاً بينهما في منتصف

المعركة، فإن الذ ي يقتل صاحبه يتولى زمام الحكومة الإسلامية الكبر ى في يديه من غير أن تهلك فئات الجيشين المتقابلين جزافاً في صفين. فهل كان معاوية يستجيب لدعوة الإمام (عليه السلام) أقل استجابة.

كلا... وانما كان يلوذ بالصمت الحاسم فيعود الإمام (عليه السلام) إلى معكسره يائساً من استجابة معاوية لأحد المطلبين في تحقيق الحق بينما كانت الجثث تناثر أشلاء ممزقة فوق التراب ويبقى معاوية مرائياً على النداء في جيشه (مطالباً بالثأر لمقتل عثمان) مع استشارة عمر بن العاص في تدبير مشكلاته العسكرية الطارئة فهل استجاب مرة من المرات لدعوة الإمام (عليه السلام).

كلا.. وانما كان يلوذ بالصمت العميق.. فيعود الإمام (عليه السلام) معسكره متألماً ويائساً من عدم استجابة معاوية لتحقيق الحق المجرد وأعلانه على رؤوس المعسكرين، بينما كانت الجثث حينذاك تناثر أشلاء من كلا الجيشين فوق التراب أمام عينيه ولا لا يبرح هو دائباً على النداء في جيشه يحضهم على المطالبة بالثأر لمقتل عثمان وهو في الواقع يروم أن يستقل بالحكم في بلاد الشام منفصلاً عن سيطرة الدولة الإسلامية الكبرى وتمهيد السبيل لمكافأة عمرو بن العاص ببلا مصر كلها ويبقى مستشار له قريباً منه عند الملمات الحربية والسياسية.

لم تكن أيام صفين تمضي بأسر ها على وتيرة واحدة بين الجيشين وإنما كانت تمضي وفيها أيام المعارك الشديدة تبعث على الجزع في النفوس وتسلب الأرواح سلباً لا يكاد يحيط يحصره إمكان وكانت فيها أيام الهدنة اليسيرة تحيل المتحاربين إلى الورع ومضاعفة التبتل والعبادة والاستغفار العميق فمن بين تلك الأيام الشديدة ما ذكره نصر بن مزاحم في كتاب (صفين) قال: حدثنا عمر بن سعد، قال: لما كان غداة الخميس لسبع خلون من

صفر سنة سبع وثلاثين صلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)الغداة فغلس، وما رأيت عليّاً ً غلس الغداة في صفين أشد من تغليسه يومئذ، وخرد بالناس إلى أهل الشام فزحف نحوهم، وكان يبدؤهم فيسير إليهم. فإذا رأوه قد زحف استقبلوه يزحونهم.

قال نصر فحدثني عمر بن سعد قال: لما خرج عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) إليهم غداة ذلك اليوم، واستقبلوه رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم ربّ هذا السقف المحفوظ المكفوف الذي جعلته محيطاً بالليل والنهار، وجعلت فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل الكواكب والنجوم وجعلت سكانه سبطاً (أي أمة) من الملائكة لا يسأمون العبارة. وربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى. ومما لا يرى من خلقك العظيم. وربّ الفلك التي تجري في البحر المحيط بما ينفع الناس وربّ السحاب المسخر بين السماء والأرض وربّ البحر المسجور المحيط بالعالمين، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً ,للخلق متاعاً.. أن أظهرتنا على عدونا مجنبنا البغي وسددنا للحق وان أظهرتم علينا فارزقنا الشهادة واعصم بقية أصحابي من الفتنة قال، فلما رأوه قد أقبل تقدموا إليه بزحوفهم، وكان على ميمنته يومئذ عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى ميسرته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وقراء العراق مع ثلاثة نفر عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة(54) وعبد الله بن بديل، والناس على راياتهم ومراكزهم وعلي (عليه السلام) في القلب في أهل المدينة جمهورهم الأنصار، ومعه من خزاعة من كنانة عدد حسن. قال نصر بن مزاحم

ورفع معاوية قبة عظيمة وألقى عليها الكرابيس وهي قطع من القماش وجلس تحتها. قال نصر بن مزاحم وقد كان لهم قبل هذا اليوم ثلاثة أيام متوالية ليس فيها الكثير من الشدة الحربية، فأما اليوم الرابع فإن محمّد بن الحنفية (عليه السلام) خرج في جمع من أهل العراق، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في جمع من أهل الشام فاقتتلوا غير ان عبيد الله بن عمر أرسل إلى محمّد بن الحنفية ان أخرج إليَّ أبارزك فقال نعم، ثم خرج إليه فبصر بهما عليّ (عليه السلام) فقال من هذان المتبارزان؟ قيل: محمّد بن الحنف ية وعبيد الله بن عمر. فحرك دابته ثم دعا محمّداً إليه فجاءه فقال: أمسك أمسك دابتي فأمسكها فمشى راجلاً بيده سيفه نحو عبيد الله وقال له: أنا أبارزك، فهلم إليَّ.. فقال عبيد الله: لا حاجة بي إلى مبارزتك قال: بلى فهلم إليَّ، قال: لا أبارزك ثم رجع إلى صفه فرجع عليّ (عليه السلام) فقال له ابن الحنفية يا أبتي. منعتني من مبارزته، فو الله لو تركتني لرجوت لك أن تقتله وما كنت آمن أن يقتلك. فقال يا أبت انبرز بنفسك إلى هذا اللئيم؟ والله لو ان أباه يسألك المبارزة لرغبت بك عنه فقال الإمام (عليه السلام) يا بني لا تذكر أباه، ولا تقل فيه إلاّ خيراً(55).

قال نصر بن مزاحم(56) وأما اليوم الخامس فإنه خرج فيه عبد الله بن العباس فخرج إليه الوليد بن عقبة فأكثر من سب بني عبد المطلب وقال العباس قطعتم أرحامكم وقتلتم أمامكم، فكيف رأيتم صنع الله بكم لم تعطوا ما طلبتم ولم تدركوا ما أملتم.

أملتم والله.. ان شاء مهلككم.. وناصرنا عليكم. فأرسل إليه

عبدالله بن عباس، ان ابرز إليَّ؟ فأبى أن يبرز إليه فقاتل عبد الله بن العباس ذلك اليوم قتالاً شديداً ثم انصرفوا وكل جانب غير غالب.

قال نصر بن مزاحم: وخرج في ذلك اليوم شمر بن ابرهة ابن الصياح الحميري مستنكراً فلحق بعليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في ناس من قراء أهل الشام.

ففتّ ذلك في عضد معاوية وعمرو بن العاص وقال عمرو: يا معاوية : أنك تريد أن تقاتل أهل الشام رجلاً له من محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) قرابة قريبة ورحم ماسة وقدم في الإسلام لا يعتد أحد بمثله وهذه في الحرب لم يكن لأحد من أصحاب محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وانه قد سار إليك بأصحاب محمّد المعدودين وفرسانهم وقرائهم وأشرافهم وقدمائهم في الإسلام ولهم في النفوس مهابة، فبادر بأهل الشام مخاشن الأوعار ومضايق الغياض. واحملهم على الجهد، وأئتهم من باب الطمع قبل أن ترفههم، فيحدث طول المقام مللا فتظهر فيهم كآية الخذلان. ومهما نسيت فلا تنس انك على باطل، وان عليّاً على حق، فبادر إلى الأمر قبل اضطرابه عليك فقام معاوية في أهل الشام خطيباً فقال: أيها الناس أعيرونا جماجمكم وأنفسكم لا تقتتلوا ولا تتجادلوا فإن اليوم يوم خطارة ويوم حقيقة وحفاظ. انكم لعى حق وبأيديكم حجة إنما تقاتلون من نكث البيعة وسفك الدم الحرام فليس له في السماء عاذر.

قدموا أصحاب السلاح المستلئمة واخروا الحاسر واحملوا بأجمعكم فقد بلغ الحق مقطعه وانما هو ظالم ومظلوم.

قال نصر بن مزاحم: وخطب عليّ (عليه السلام) أصحابه فيما حدثنا به عمر بن سعد وقد جمع أصحاب رسول الله عنده فهم يلونه كانه أحب أن يعلم الناس ان الصحابة صحابة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) متوافرون معه، فحمد الله وأثنى عليه

وقال وهو متوكئ على قومه: أما بعد فإن الخيلاء من التجبر، وان النخوة من التكبر وان الشيطان عدو حاضر يعدكم بالباطل. الا ان المسلم اخو المسلم فلا تنابذوا، ولا تخاذلوا إلا ان شرائع الدين واحدة وسبله مقصودة من أخذ بها لحق ومن فارقها محق ومن تركها مرق. ليس المسلم بالخائن ان ائتمن ولا بالمخلف إذا وعد ولا بالكذاب إذا نطق. نحن أهل بيت الرحمة وقولنا الصدق وفعلنا القصد، ومنا خاتم النبيين وفينا قادة الإسلام وفينا حملة الكتاب. ألا انا ندوكم إلى الله وإلى رسوله وإلى جهاد عدوه والشدة في أمره وابتغاء مرضاته وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان وتوفير الفيىء على أهله الا ان من أعجب العجب ان معاوية بن أبي سفيان الأموي وعمرو بن العاص أصبحا يحرضان الناس على طلب الدين بزعمهما. ولقد علمتم اني لم أخالف رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قط، ولم أعصه في أمر. أقيه بنفسي في المواطن التي ينكص فيها الأبطال، وترعد فيها الفرائص بنجدة أكرمني الله سبحانه بها وله الحمد، وقد قبض رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وان رأسه لفي حجري ولقد وليت غسله بيدي وحدي وتقلبه المقربون معي، وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها إلاّ ما شاء الله قال أبو سنان الأسلمي: فأشهد لقد سمعت عمار بن ياسريقول للناس : أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم ان الأمة لم تستقم عليه أولا، وانها لن تستقيم عليه آخراً.

قال: ثم تفرق الناس وقد نفذت أبصارهم في قتال عدوهم فتأهبوا واستعدوا.

قال نصر بن مزاحم(57) : وحدثنا عمر بن سعد عن مالك بن أعين عن

زيد بن وهب ان عليّاً (عليه السلام) قال في هذه الليلة: حتى متى لا تناهض القوم بأجمعنا؟ ثم قال في الناس فقال:

الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض ولا ينقض ما أبرم، ولو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة، ولا من خلفه ولا تنازع البشر في شيء من أمره ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله. وقد ساقتنا الأقدار وهؤلاء القوم، حتى لفت بيننا في هذا الموضوع ونحن من ربّنا بمرأى ومسمع ولو شاء لعجل النقمة ولكان منه النصر، حتى يكذب الله ويعلم الحق أين مصيره.

قال نصر بن مزاحم: وحدثنا عمر بن سعد عن مالك بن أعين عن زيد بن وهب قال كان فارس أهل الشام الذي لا ينازع عوف بن مجزأة المرادي المكنى (أبا أحمر) وكان فارس أهل الكوفة الكعبر بن حدير الأسد. فقام

الكعبر إلى عليّ (عليه السلام) وكان منطيقاً فقال يا أمير المؤمنين ان في أيدينا عهداً من الله لا تحتاج فيه إلى الناس وقد ظننا بأهل الشام الصبر وظنوا بنا، وصبرنا وصبروا وقد عجبت من صبرنا أهل الدنيا (ألم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (58).

فقال له عليّ (عليه السلام) خيراً وخرج الناس إلى مصافهم، وخرج عوف بن مجزأة المرادي نادراً من الناس... وكذا كان يصنع. وقد كان قتل نفراً من أهل العراق مبارزة، فنادى يا أهل العراق هل من رجل عصاه سيف يبارزني؟ ولا أغركم من نفسي أنا عوف بن مجزأة فنادى الناس بالعكبر فخرج إليه منقطعاً عن أصحابه ليبارزه فقال عوف:

بالشام أمن ليس فيه خوف*** بالشام عدل ليس فيه حيف

بالشام جود ليس فيه سوف*** أنا ابن مجزاة واسمي عوف

فقال له العكبر:

الشام محل والعراق ممطر*** بها إمام طاهر مطهر

والشام فيها أعور معور*** أنا العراقي واسمي عكبر

ابن حدير وأبوه المنذر*** ادن فإنّي في البراز قسور(59)

فتطاعنا ملياً فصرعه العكبر وقتله، وكان معاوية على التل في وجوه قريش ونفر قليل من الناس. فوجه العكبر فرسه يملأ فروجه ركضا ويضربه بالسوط مسرعاً نحو التل فنظر معاوية إليه فقال هذا الرجل مغلوب على عقله أو مستأمن. فأسألوه فاه رجل وهو في حمو فرسه فناداه فلم يجبه ومضى مبادراً حتى انتهى قارب معاوية فجعل يطعن في أعراض الخيل ورجا أن ينفرد بمعاوية فيقتله فاستقبله رجال قتل منهم قوماً. وحال الباقون بينه وبين معاوية بسيوفهم ورماحهم. فلما لم يصل إليه قال: أولى لك يا ابن هند. أنا الغلام الأسدي ورجع إلى صف العراق ولم يكلم، فقال له عليّ (عليه السلام) ما دعاك إلى ما صنعت لا تلق نفسك إلى التهلكة، قال: يا أمير المؤمنين، أردت غرة ابن هند فحيل بيني وبينه وكان العكبر شاعراً فقال:

قتلت المرادي الذي كان باغياً*** ينادي وقد ثار العجاج نزال

يقول أنا عوف بن مجزاة والمنى*** لقاء ابن مجزاة بيوم قتال

فقلت له لما علا القوم صوته*** منيت بمشيوح اليدين طوال

فأوجرته في ملتقى الحرب صعدة*** ملأت بها رعباً صدور رجال

فغادرته يكبوا صريعاً لوجهه*** ينوء مراراً في مكر مجال

وقدمت مهري راكضاً نحو صفهم*** أصرفه في جريه بشمالي

أريد به التل الذي في رأسه*** معاوية الجاسي لكل خبال

فقام رجال دونه بسيوفهم*** وقام رجال دونه بعوالي

ولو مت في نيل المنى ألف موتة*** لفت إذا ما مت لست أبالي

فقال العكبر يد الله فوق يده، فأين الله جل جلاله ودفاعه عن المؤمنين(60).

قال نصر بن مزاحم عن الحارث بن حصين عن أبي الكنود، جزع أهل الشام يومئذ على قتلاهم جزعاً شديداً فقال معاوية بن خديج قبح الله ملكاً يملكه المرء بعد حوشب وذي الكلاع، والله لو ظفرنا بأهل الدنيا بعد قتلهما بغير مؤنة ما كان ظفراً.

وقال يزيد بن أسد يخاطب معاوية بن أبي سفيان، لا خير في أمير لا يشبه آخره أوله. ولا يدمى جريح ولا يبكى قتيل تنجلي هذه الفتنة. فإن يكن الأمر لك أو أوصيت وبكيت على قرار وإن يكن لغيرك فما أصبت به أعظم. فقال معاوية يا أهل الشام ما جعلكم أحق بالجزع على قتلاكم من أهل العراق على قتلاهم والله ما ذو الكلاع فيكم بأعظم من عمار بن ياسر

فيهم، ولا حوشب فيكم بأعظم من هاشم المرقال فيهم وما عبيد الله بن عمر فيكم بأعظم من (ابن بديل فيهم) وما الرجال إلاّ أشباه، وما التمحيص إلاّ من عند الله فابشروا فإن الله قد قتل من القوم ثلاثة : قتل عمار وكان فتاهم، وقتل هاشماً وكان حمزتهم وقتل ابن بديل وهو الذي فعل الأفاعيل، وبقى الأشتر والأشعث وعدي بن حاتم وأما الأشعث قائماً حمي عنه مصره، وأما الأشتر وعدي فغضبا والله للفتنة، قاتلهما غداً إن شاء الله تعالى! فقال معاوية بن خديج : ان يكن الرجال عندك أشباها فليست عندنا كذلك وغضب.

وروي نصر بن مزاحم عن عمر بن سعد عن عبيد الرحمن بن كعب قال: لما قتل عبد الله بن بديل يوم صفين مر به الأسود بن بديل طهمان الخزاعي وهو باخر رمق فقال له: عز عليَّ والله مصرعك، أما والله لو شهدتك لأسيتك ولدافعت عنك، ولو رأيت الذي أشعرك وطعنك لأحببت الا أزايله ولا يزايلني حتى أقتله أو يلحقني بك. ثم نزل إليه فقال يا عبد الله، والله إن كان جارك ليأمن قال: أوصيك بتقوى الله رحمك الله وان تناصح أمير

المؤمنين، وتقاتل معه حتى يظهر الحق أو تلحق بالله، وأبلغ أمير المؤمنين عني السلام وقل له قاتل على المعركة خلف ظهره حتى تجعلها خلف ظهره فان أصبح والمعركة خلف ظهره، كان الغالب ثم لم يلبث ان مات عدونا في الحياة ونصح لنا في الوفاة(61).

قال نصر بن مزاحم : وحدثني عمر بن شمر عن جابر ، عن عامر عن صعصعة بن صوحان : ان ابرهة بن الصياح الحميري قام في قومه بصفين

ص 82

فقال: ويحكم يا معشر أهل اليمن، إني لأظن الله قد أذن بفنائكم ويحلم! خلوا بين الرجلين فليقتتلا. فأيهما قتل صاحبه ملنا معه جميعاً. وكان ابرهة من رؤساء أصحاب معاوية فبلغ قوله عليّاً (عليه السلام) فقال: صدق ابرهة والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام، أنا بها أشد سروراً مني بهذه الخطبة قال: وبلغ معاوية كلام ابرهة، فتأخر إلى آخر الصفوف وقال لمن حوله إني لا أظن ابرهة مصاباً في عقله فأقبل أهل الشام يقولون: والله ان ابرهة لأكملنا ديناً وعقلاً ورأياً وبأساً ولكن الأمر كره مبارزة عليّ(62) وسمع ما دار من الكلام أبو داود (عروة بن داود العامري) وكان من فرسان معاوية، فقال ان كان معاوية كره مبارزة أبي الحسن فأنا أبارزه، ثم خرج بين الصفين فنادى. أنا أبو داود فابرز إليَّ يا أبا الحسن. فتقدم عليّ (عليه السلام) نحوه فناداه الناس ارجع يا أمير المؤمنين عن هذا الكلب، فليس لك بخطر، فقال: والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه دعوني وإياه ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت احداهما يمنية والأخرى شامية فارتج العسكران لهول الضربة وصرخ ابن عم لأبي داود واسوء صباحاه وفتح الله البقاء بعد أبي داود. وحمل على عليّ (عليه السلام) فطعنه (عليه السلام) فيراه ثم قنعه ضربة فألحقه بأبي داود ومعاوية واقف على التل يبصر ويشاهد، فقال تبا لهذه الرجال وقبحاً أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع؟

فقال له الوليد بن عقبة أبرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته، فقال والله لقد دعاني إلى البراز حي لقد استحييت من قريش وإني والله لا أبرز إليه ما جعل العسكر من يدي الرئيس إلا وقاية له. فقال عتبة بن أبي سفيان

ص 83

ألهو عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه. فقد علمتم أنه قتل حريثاً وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكك به إلاّ قتله فقال معاوية لبسر بن ارطاة أتقوم لمبارزته؟ فقال: ما أحد أحق بها منك. أما إذا بيتموه فأنا له. قال معاوية : انك ستلقاه غداً في أول الخليل وكان عند بسر بن أرطاة ابن عم له قدم من الحجاز يخطب ابنته، فأتى بسراً

فقال له إني سمعت انك وعدت من نفسك أن تبارز عليّاً أما تعلم ان الوالي من بعد معاوية عتبة ثم بعده محمّداً أخوه وكل من هؤلاء قرن عليّ، فما يدعوك إلى ما أرى؟ قال: الحياء... خرج مني كلام، فأنا أستحي أن أرجع عنه فضحك الغلام وقال:

تنازله يا بسر إن كنت مثله*** وإلاّ فإن الليث للشاه آكل

كأنك يا بسر إن كنت جاهل*** بآثاره في الحرب أو متجاهل

معاوية الوالي وصنواه بعده*** وليس سواء مستعار وثآكل

أولئك هم أولى به منك انه*** عليّ فلا تقربه اننك هابل

متى تلقه فالموت في رأس رمحه*** وفي سيفه شغل لنفسك شاغل

وما بعده في آخر الخيل عاطف*** ولا قبله في أول الخيل حامل

فقال بسر : هل هو إلاّ الموت؟ لابدّ من لقاء الله فغدا عليّ (عليه السلام) التل ليقف عليه إذ برز له بسر مقنعا في الحديد لا يعرف فناداه أبرز إليَّ يا أبا الحسن فانحدر إليه عليّ تؤدة غير مكترث له حتى إذا قاربه طعنه وهو رادع فالقاه إلى الأرض ومنع الدرع السنان أن يصل إليه. فاتقاه بسر بعورته وقصد أن يكشفها يستدفع بأسه، فانصرف عنه بوجهه (عليه السلام) مستدبراً له فعرفه

الأشتر حين سقط فقال: يا أمير المؤمنين هذا بسر بن أرطاة هذا عدو الله وعدوك فقال: دعه عليه لعنة الله. . أبعد أن فعلها؟ فحمل ابن عم بسر من أهل الشام وهو شاب على عليّ (عليه السلام) وقال:

أرديت بسراً والغلام ثائره*** أرديت شيخاً غاب عنه ناصره

وكلنا حام لبسر واثره

فلم يلتفت إليه عليّ (عليه السلام) وتلقاه الأشتر فقال:

في كل يوم رجل شيخ شاغره*** وعورة وسط العجاج ظاهرة

تبرزها طعنة كف واتره*** عمرو وبسر منيا بالعاقرة

فطعنه الأشتر فكسر صلبه. وقام بسر من طعنة عليّ (عليه السلام) هارباً وفرت خيله.. وناداه عليّ (عليه السلام) يا بسر. معاوية كان أحق بها منك، فرجع بسر إلى معاوية.. فقال له معاوية، ارفع طرفك فقد أدال الله عمرا منك وقال الشاعر في ذلك:

أفي كل يوم فارس تندبونه*** له عورة تحت العجاجة بادية

يكف بها عنه عليّ سنانه*** ويضحك منها في الخلاء معاوية

بدت أمس من عمرو فقنع رأسه*** وعورة بسر مثلها حذو حاذية

فقولا لعمر وابن ارطاة أبصرا*** سبيلكما لا تلقيا الليث ثانية

ولا تحمد إلا الحيا وخصاكما*** هما كانتا للناس والله واقية

فلولاهما لم تنجوا من سنانه*** وتلك بما فيها عن العود ناهية

ص 85

متى تلقيا الخيل المغبرة صبحة*** وفيها عليّ فاتركا الخيل ناحية

وكونا بعيدا حيث لا تبلغ القنا*** ونار الوغى... ان التجارب كافة

وان كان منه بعد للنفس حاجة*** قعودا إلى ما شئتما هي ماهية

قال: فكما بسر بعد ذلك اليوم إذا لقي الخيل التي فيها عليّ نتحي ناحية وتحامى فرسان الشام بعدها عليّاً (عليه السلام)(63).

قال نصر: وحدثنا عمر عن سعد عن الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي جحيفة قال جمع معاوية كل قرشي ممن كان في الشام . وقال لهم: يا معشر قريش انه ليس لأحد منكم في هذه الحرب فعال يطول بها لسانه غدا ماعدا عمرا فما بالكم؟ أين حمية قريش؟ فغضب الوليد بن عقبة وقال: أي فعال تريد. والله ما نعرف في أكفائنا من قريش العراق من يغنى غناءنا باللسان ولا باليد فقال معاوية، بلى ان أولئك وقوا عليّاً بأنفسهم. قال الوليد: كلا، بل وقاهم عليّ بنفسه قال: ويحكم.. أما فيكم من يقوم لقرنه منهم مبارزة ومفاخرة؟ فقال: مروان بن الحكم، أما البراز فإن عليّاً لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمّد بنيه فيه ولا ابن عباس واخوانه، ويصلى بالحرب دونهم فلأبهم تلبرز؟ واما المفاخرة فبماذا مفاخرة؟ أبالإسلام أم بالجاهلية. فإن كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة وإن كان بالجاهلية فاليتملك فيه لليمن. فإن قلنا قريش قالوا لنا عبد المطلب.

فقال عتبة بن أبي سفيان، اللهوا عن هذا، فإني لاق بالغداة جعدة بن هبيرة فقال معاوية: بخ بخ قومه بنو مخزوم وامه ام هاني بنت أبي طالب كف كريم.

ص 86

وكثر العتاب والخصام بين القوم حتى اغلظوا لمروان واغلظ لهم فقال مروان أما والله لولا كان مني إلى عليّ (عليه السلام) في أيام عثمان ومشهدي بالبصرة لكان لي في عليّ رأي يكفر امرءاً ذا حسب ودين، ولكن ولعل

ونابذ معاوية الوليد بن عقبة (دون القوم) فاغلظ له الوليد فقا لمعاوية انك إنما تجترئ عليّ بنسبك من عثمان. ولقد ضربك الحد وعزلك عن الكوفة.

ثم انهم ما امسوا حتى اصطلحوا وأرضاهم معاوية من نفسه ووصلهم بأموال جليلة من بيت المال.

وكان لجعدة في قريش شرف عظيم، وكان له لسان، وكان أحب الناس إلى (عليّ)، فغدا عليه عتبه فنادى: يا أبا جعدة، لها جعددة ، فاستأذن عليّاً (عليه السلام) في الخروج إليه فأذن له واجتمع الناس، فقال عتبة يا جعدة. والله ما أخرجك علينا إلاّ حب حالك وعمك عامل البحرين، وأنا والله ما تزعم ان معاوية أحق بالخلافة من عليّ، ولا أمره في عثمان، ولكن معاوية أحق بالشام لرضا أهلها به فاعفوا لنا عنها فوالله ما بالشام رجل له طرق ولا قوة إلاّ أجد من معاوية في القتال وليس بالعراق رجل له مثل جد عليّ (عليه السلام) في الحرب، ونحن أطوع لصاحبنا منكم لصاحبكم، وما أقبح بعلي أن يكون في قلوب المسلمين أولى الناس حتى إذا أصاب سلطاناً أفنى العرب.

فقال جعدة: أما حبي لخالي فلو كان لك خال مثله لنسيت أباك.

وأما ابن أبي سلمة فلم يصيب أعظم من قدره، والجهاد أحب إليَّ من العمل. وأما فضل عليّ على معاوية، فهذا ما لا يختلف فيه اثنان، وأما رضاكم اليوم بالشام فقد رضيتم بها أمس فلم تقبل، وأما قولك ليس بالشام أحد

إلاّ هو أجدّ من معاوية، وليس بالعراق رجل مثل عليّ، فهكذا ينبغي له أن يكون مضى بعلي يقينه، وقصر بمعاوية شكه وقصد أهل الحق خير من جهد أهل الباطل، وأما قولك: نحن أطوع لمعاوية منكم لعلي فوالله ما نسأله ان سكت ولا نرد عليه.. ان قال وأما قتل العرب فإنّ الله كتب القتل والقتال فمن قتل الحق فإلى الله.

فغضب عتبة وفحش على جعدة فلم يجبه. وأعرض عنه فلما انصرف عنه جمع خيله فلم يستبق منها شيئاً وجل أصحابه السكون، والأزد والصدف وتهيأ جعدة بما استطاع، والتقوا فصبر القوم جميعاً.. وباشر جعدة يومئذ القتال بنفسه، وجزع عتبة، فأسلم خيله وأسرع هارباً إلى معاوية. فقال له: فضحك جعدة وهزمتك لا تغسل رأسك منها أبداً فقال: والله لقد أعذرت ولكن والله أبى بديلنا منهم فما أصنع؟ وحظي جعدة بعدها عند عليّ (عليه السلام).

وقال الأعور الشني في ذلك يخاطب عتبة بن أبي سفيان:

ما زلت تظهر في عطفيك أبهة*** لا يرفع الطرف منك التيه والصلف

لا تحسب القوم ألا قعقع قرقرة*** أو شحمة بزها شاء لها نطف

حتى لقيت ان مخزوم وأي فتى*** أحيا مآثر اباء له سلفوا

أشجاك جعدة إذ نادى فوارسه*** حاموا عن الدين والدنيا فما وقفوا

هلا عطفت على قوم بمصرعة*** فيها السكون وفيها الأزد والصدف

قال نصر بن مزاحم: وكان رجل من أهل الشام يقال له (الأصبغ بن ضرار الأزدي) من مسالح معاوية وطلائعه فندب له عليّ (عليه السلام) الأشتر فأخذه

ص 88

أسيراً من غير قتال فجاء به ليلاً فشده وثاقاً وألقاه عند أصحابه ينتظر الصبح وكان الأصبغ هذا شاعراً مفوهاً فأيقن بالقتل ونام أصحابه فرفع صوته فأسمع الأشتر وقال:

أولئك قومي لا عدمت حياتهم*** على الناس لا يأتيهم بنهار

فلو انني كنت الأسير لبعضهم*** أحاذر في الأصباح يوم يواري

وجار المرادي الكريم وهانىء*** وفي الصبح قتلي أو فكاك أساري

ألا ليت هذا الليل أصبح سرمداً*** لما رد عن ما أخاف حذاري

يكون كذا حتى القيامة انني*** فصبراً على ما ناب يا ابن ضرار

فيا ليل أطبق ان في الليل راحة*** إلى الله أاخشى ومالك جاري

ولو كنت تحت الأرض ستين واديا*** أطاع بها، شمرت ذيل أزاري

فيا نفس مهلاً ان للموت غاية*** وجار شريح الخير قر قراري

أاخشى ولي في القوم رحم قريبة*** وزجر بن قيس ما كرهت نهاري

ولو انه كان الأسير ببلدة*** دعوت فتى منهم وستر عواري

وجار سعيد أو عدي بن حاتم*** وعضوهم عني وستر عواري

قال: فغدا به الأشتر إلى عليّ (عليه السلام) فقال يا أمير المؤمنين ان هذا رجل من مسالح معاوية، أصبته أمس وبات عندنا الليل فحركنا بشعره وله رحم، فإن كان فيه القتل فاقتله وان ساغ بك العفو عنه فهبه لنا؟ فقال: هو لك يا مالك، وإذا أصبت منهم أسيراً فلا تقتله فإنّ أسير أهل القبلة لا يقتل.

ص 89

فرجع الأشتر إلى منزله وخلى سبيله(64).

وحميد بالذكر ان الخليفة عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) كان ينفق الأموال من خزينة بيت المال على ذوي الاستحقاق فيها من جنود الإسلام في صفين وما وراء صفين وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية العادلة كما كان يفعل (ابو بكر الصديق) أيام خلافته في حروبه لأهل الردة. وهيهات كان للخليفة عليّ (عليه السلام) أن ينفق درهماً واحداً على منافعه الخاصة لئلا يجعل بعضهم يسيىء الاحتمال والظن من حيث عنصر الأمارة بأمارة المؤمنين، وبوظيفة العمال المسلمين الآخرين بينما كان معاوية بن أبي سفيان... وهو عامل موظف لدى الرئاسة الإسلامية العليّاً. يستغل أموال الخزينة الإسلامية في الشام استغلالاً منحرفاً من تلقاء هواه كيفما يشاء ويبددها منحاً باطلة لاسكات الأشخاص الجرئين ممن كانوا يتطاولون عليه في كثير من المناسبات بالكلام المهين أو ممن كانوا يمدحونه ويثنون عليه بالأشعار في (أيام صفين) أو الذين يتجسسون له من أجل دعمه وتحقيق مصالحه وأهوائه المنشودة أو لاثارة المطامع في نفوس الأبعاض من جيش الخليفة في صفين لكي يطالبوه بأن منحهم عطايا من الأموال الإسلامية مثلما يمنحه معاوية للكثير من جنوده فيستوي بذلك مع الخليفة في تبذير أموال الخزينة الإسلامية في غير وجوهها فينجو هو حينئذ من تهمة التبذير والإسراف المحذور هكذا كان معاوية يتصرف تصرفه الانتهازي المريب مع أنصاره وغير أنصاره في أيام صفين على انه لم يكن تصرفه هذا غريباً شاذا من طبيعة أهوائه الدنيوية ان كان يروم أن يصنع مسالك نفسه في حكم الشام كما يرومه وهو بمساعدة أنصاره وليس كما يقتضيه الإسلام المجرد عن كل أساليب المكر والخداع.

ولما أشتدت ظروف الحرب على معاوية أصبح ولم يعد يرى بدا من الركون إلى المرك ولو بقادة جيشه الكبار، فدعاهم إلى الاجتماع به ليتخذوا معاً مسلكاً جديداً موحداً للنكاية بجيش الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فاستدعى إليه عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليى فقال لهم: إني أصبحت اليوم مكروباً جداً إلى أبعد الحدود من وجود فئة باغية من رجال ابن أبي طالب وهم: سعيد بن قيس في همدان، ومالك الأشتر في قومه، وهاشم المرقال وعدي بن حاتم وقيس بن سعد في الأنصار.

أما أنتم فقد صان أطرافكم أهل اليمن وأهل الشام، وآخرون من أهل مكة والبصرة وأنتم عدتهم من قريش، وقد أحببت أن يرى الناس غناكم وجدواكم رؤية فسيحة وبصورة أعظم في هذه الحرب فهل تتركون لي حرية الأختيار والتوجيه فيكم؟ فقالوا: نعم ذلك اليك فقال: أنا أكفيكم غدا. سعيد بن قيس وقومه وأنت يا عمرو تكفينا

في اليوم التالي (هاشم المرقال) وقومه، وأنت يا عبد الله بن عمر تكفينا بعدئذ مالك الأشتر وأصحابه، وأنت يا عبد الرحمن بن خالد تكفينا أخيراً (عدي بن حاتم) فإذا لم ينقبض لنا أن تخضد شوكة الأعداء بهذا الأسلوب نلجأ إلى الأسلوب آخر حتى يتم لنا الفوز المبين بالمستقبل من الأيام ثم انتقض اجتماعهم على هذا الاتفاق.

وبلغ جيش الشام تصميم معاوية على اقتحام جيش الإمام عليّ (عليه السلام) في صباح اليوم التبيان فوجدوا حينذاك في ذلك فرصة يتيمة ليراهم معاوية بعينه كيف يتسابقون إلى التفاني والقتال بين يديه فيرضى عن اخلاصهم له في أشد الأوقات.

ثم كان الصباح المنتظر، فخرج معاوية واختار بنفسه أبرز الفرسان وأشجعهم على احتمال المصاعب ليخوض قدامهم ظلمات الحرب ثم ما عتم ان هجم على مواقع همدان تتقدمه أسراب كثيفة من الخيل وهو يقول:

لا عيش إلا فلق قحف الهام*** لن تمنع الحرمة بعد العام

سأملك العراق بالشام*** أنعى ابن عفان مدى الأيام

فطعن في أعراض الخيل ملياً فتنادت همدان بشعارها فاشتد الكر العظيم والفر الحكيم حتى لم يعد قائدهم (سعيد بن قيس) يملك اصطباراً فأقحم فرسه ناقماً على معاوية وهو يرتجز:

يا لهف نفسي فاتني معاوية*** فوق طمر كالعقاب هاوية

والرقصات لا تعود ثانية*** إلاّ على ذات خصيل طاوية

وان يعد اليوم فكفي عالية

وانطلقت مع سعيد بن قيس فرسانه انطلاقة محمومة إلا ان معاوية انصرف مع جيشه إلى خارج الميدان وحجز بينهم ظلام الغروب دون أن يدرك مأربا مشرفا على كل حال.

وأصبح صباح اليوم التالي فخرج عمرو بن العاص يختال في أسراب من الحيل قاصداً (هاشم المرقا). وكان المرقال هذا يحمل لواء الإمام (عليه السلام) خفاقاً على رأسه فسمع من بعبد عمرو بن العاص يقول:

لا عيش ان لم ألق يوماً هاشما*** ذاك الذي ان ينج مني سالما

يكن شجى حتى الممات لازما

فتغلغل بعض التغلغل في خيل المرقال ضرباً وتجريحاً فحمل عليه

المرقال وهو يرتجز:

لا عيش ان لم ألق يومي عمرا*** ذاك الذي أحدث فينا الغدرا

ويحدث الله لأمر أمرا*** لا تجزعي يا نفس صبرا صبرا

ضرباً مداريك وطعنا شزرا*** يا ليت ما تحي يكون قبرا

ثم أدرك عمرا فطعنه في جنبه حتى أوشك أن يأتي عليه لولا انه راغ عن الطعنة واندس بين أرتال جيشه ثم انصرف الاثنان من غير أن يحرز أحدهما فضيلة مرمومة على الآخر ثم كان صباح اليوم الثالث فبرز بسر بن أرطاة في غمامة سوداء من أسراب الخيل وجحافل الرجال فانبرى إليه قيس بن سعد بن عبادة في لهاميم من الأنصار فاشتبك الجيشان معاً أفضع اشتباك وأوحشه فارتجز قيس بن سعد بن عبادة قائلاً:

أنا ابن سعد زانه عباده*** والخزرجيون رجال سادة

ليس فراري في الوغى بعادة*** ان الفرار للفتى قلادة

يا ربّ أنت لقني الشهادة*** والقتل خير من عناق غادة

حتى متى تثنى لي الوسادة

فبرز إليه بسر بن أرطاة وهو يرتجز:

أنا ابن أرطاة عظيم القدر*** مراود في غالب بن فهر

ليس الفرار من طباع بسر*** ان يرجع اليوم بغير وتر

وقد قضيت في عدوي نذري*** يا ليت شعري ما بقى من عمري

وطعن بسر قيساً طعنة سهلة في جنبه فضربه قيس بسيفه ضربة غير عميقة ارتد منها بسر إلى الوراء ورجع بجيشه إلى حيث جاء منه، ولقيس بن عبادة ضربة من الفضل على بسر وجيشه يومذاك، ثم كان صباح الرابع فبرز عبيد الله بن عمر بجيش كثيف يضم أبرز فرسان معاوية وأصبرهم على احتمال المكاره فقال له معاوية انك ذاهب يا عبيد الله لتقمع شموخ الفتاكين من أفاعي أهل العراق وان لي فيك أعز الأمال فارفق واتئد بينك وبينهم فانصرف عبد الله إلى ميدان القتال، فلقيه مالك الأشتر مزبداً كعادته كلما انطلق إلى قتال أعدائه وارتجز قائلاً:

في كل يوم هامتي مقتره*** بالضرب أبغي منة مؤخرة

والدرع خير من يرود حيره*** يا ربّي جنبني سبيل الكفرة

واجعل وفاتي بأكف الفجرة*** ما تعدل الدنيا جميعاً وبره

ولا بعوضاً في ثواب البررة

فتراجعت من أمامه خيول عبد الله فاستاء عبيد الله من تراجعها فبرر أمامها عسى أن يسترجعها من جديد فحمل عليه الأشتر من غير توئدة فطعنه في جنبه فانصرف على أثرها نحو موقف معاوية وللأشتر مزية التفوق الميداني على عبيد الله في ذلك اليوم فتضاءل افتخار معاوية بقادة جيشه.

ثم كان صباح اليوم الخامس فغدا عبد الرحمن خالد بن الوليد إلى معاوية ليتلقى ما يتلقى منه قبيل انطلاقه إلى ميادين القتال كما ان الاتفاق عليه قبلئذ عند اجتمع معاوية بقادة جيشه الكبار، فأشعر معاوية عبد الرحمن بأنه أمله الباقي ورجاؤه الأخير بعد أيام أقرانه الأربعة الذين سبقوه إلى

ميادين الفروسية فلم يصيبوا فوزا على جيوش أعدائه يستأهل الاعتزاز ثم زوده بكامل حاجته إلى الخيل والسلاح وسرايا الأبطال وشيعه إلى المعركة.

لقد كان عدي بن حاتم ينظر لقاءه منذ صباح ذلك اليوم حتى انه لم يتمالك رباطة جأشه حين رآه مقبلاً على ساحة القتال، فلقيه في أبطال مذحج وقضاعة وسمعه يقول مرتجزاً:

قل لعدي ذهب الوعيد*** أنا ابن سيف الله لا مزيد

وخالد يزينه الوليد*** فما لنا ولا لكم محيد

عن يومنا ويومكم قعودوا

قال نصر بن مزاحم المنقري(65) ثم حمل فطعن الناس فقصده عدي بن حاتم وهو يقول:

أرجو إلهي وأخاف ذنبي*** وليس شيء مثل عفو ربّي

يا ابن الوليد بغضكم في قلبي*** كالهضب بل فوق قنان الهضب

فلما قاربه وكاد أن يخالطه بالرمح توارى عبد الرحمن مضطرباً في العجاج وبين أسنة جيشه واختلط الجيشان رويداً ثم رجع عبد الرحمن إلى معاوية مقهوراً فشمت بذلك أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي وكان رجلاً شاعراً من شعراء أهل الشام المشهورين وكان عمرو بن العاص حاضراً في تلك الساعة عند معاوية فقال له معاوية وهو مغيظ محنق لقد أنصفتكم إذ لقيت

الهوامش

1 ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 2: 142.

2 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ص 2: 126 - 145.

3 - شرح نهج البلاغة 2: 145.

4 - شرح نهج البلاغة 2 : 148 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

5 - الطبري 5 : 114 .

6 - البويب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر .

7 - شرح نهج البلاغة 2 : 134 – 135 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

8 - شرح نهج البلاغة 2 : 135 – 136 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

9 - الجرعة: موقع بين النجف والحيرة.

10 - شرح نهج البلاغة 2 : 136 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

11 - الطبري 5 : 94 – 96.

12 - أبو جعفر الطبري في نهج البلاغة 2 : 151 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

13 - الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة.

14 - صرار: قرية قرب المدينة على طريق العراق.

15 - شرح نهج البلاغة 2 : 154 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم والطبري ص 127.

16 - تاريخ الطبري 5 : 124.

17 - شرح نهج البلاغة 2 :156 - 158 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم بتصرف.

18 - حش معناه بستان، وكوكب اسم رجل من الأنصار.

19 - كتاب المعارف لابن قتيبة : 194 – 195 تحقيق ثروة عكاشة ثم كتاب انصاف عثمان : 57 وللأستاذ محمّد أحمد جاد المولى بك.

20 - شرح نهج البلاغة 9 : 328 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

21 - شرح نهج البلاغة 8 : 263 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

22 - شرح نهج البلاغة 9 : 31 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

23 - شرح نهج البلاغة 2 : 162 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

24 - كتاب نهج البلاغة 2 : 185 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

25 - كتاب نهج البلاغة 14: 18 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

26 ـ كتاب حرب الجمل : 58 – 59 للسيد محسن الأمين العاملي.

27 ـ كتاب حرب الجمل : 60 - 61 للسيد محسن الأمين العاملي.

28 ـ كتاب حرب الجمل للسيد محسن الأمين العاملي.

29 ـ كتاب حرب الجمل :64 للسيد محسن الأمين العاملي.

30 ـ كتاب الفضائح الكافية لمن يتولى معاوية: 20 تأليف العلامة المحقق الجليل الشريف السيد محمّد بن عقيل بن عبد الله بن عمر.

31 ـ شرح نهج البلاغة: 4: 15 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

32 ـ شرح نهج البلاغة 4 : 14 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

33 ـ شرح نهج البلاغة 4 : 15 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

34 ـ شرح نهج البلاغة 4 : 16 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

35 ـ شرح نهج البلاغة 4 : 17 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

36 ـ شرح نهج البلاغة 4 : 26 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

37 ـ شرح نهج البلاغة 6 :313 - 314 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

38 ـ الأستيعاب : 67.

39 ـ مختصر تاريخ الدول لابن العيري غريفويوس أبو الفرج بن أهرون الطبعة الكاثوليكية سنة 1890.

40 ـ كتاب صفين لنصر بن هشام مزاحم: 369، 370.

41 ـ شرح نهج البلاغة 8 : 16.

42 ـ شرح نهج البلاغة 8 : 17 - 18 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

43 ـ شرح نهج البلاغة 5 : 196.

44 ـ شرح نهج البلاغة 5 : 196.

45 ـ شرح نهج البلاغة 8 : 42 - 43 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

46 ـ شرح نهج البلاغة 8 : 145.

47 ـ شرح نهج البلاغة 8 :46.

48 ـ شرح نهج البلاغة 8 :52 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

49 ـ شرح نهج البلاغة 8 : 52 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

50 - شرح نهج البلاغة 8 :2 6 – 63 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

51 - كتاب صفين لنصر بن مزاحم: 472، 473 وكتاب شرح نهج البلاغة 8 : 65، 67 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

52 - كتاب صفين لنصر بن مزاحم : 482 - 492.

53 - شرح نهج البلاغة 8 : 74 ، 75 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

54 - شرح نهج البلاغة 5 : 177 ، 178 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

55 و 56 - شرح نهج البلاغة 5 :177 ، 178 تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

57 - وقعة صفين : 252، 253.

58 - العنكبوت: 2، 3.

59 - كتاب صفين: 507، 512 وما يليها.

60 - كتاب صفين: 512 - 516.

61 - كتاب صفين: 520 - 521.

62 - كتاب صفين: 448 - 449.

63 - كتاب صفين: 521 - 527.

64 - كتاب صفين: 533 - 534.

65 - كتاب صفين.

سعيد بن قيس في رجال همدان، أما أنتم فقد فررتم من أعدائكم وانك يا عمرو لجبان، فغضب عمرو ثم قال فهلا برزت إلى عليّ بن أبي طالب إذا دعاك إن كنت شجاعاً كما تزعم واستطرد يقول:

تسير إلى ابن ذي يزن سعيد*** وتترك في العجاجة من دعاكا

فهل لك في أبي حسن عليّ*** لعل الله يمكن من قفاكا

دعاك إلى البراز فلم تجبه*** ولو نازلته تربت يداكا

وكنت أصم إذ ناداك عنها*** وكان سكونه عنها مناكا

فآب الكبش قد طحنت رحاه*** بنجدته ولم تطحن رحاكا

فما أنصفت صحبك يا ابن هند*** أتعرفه وتغصب من كفاكا

فلا والله ما أضمرت خيرا*** ولا أظهرت لي إلاّ هواكا

واستحيا القرشيون الحضور عند معاوية فما صنعوا في لقاءاتهم مع جيش الإمام عليّ من قبل، وشمت بهم اليمانية. فقال معاوية يا معشر قريش والله لقد قربكم لقاء القوم من الفتح ولكن الأمر أمر الله، إنما لقيتم كباش أهل العراق وقتلتم وقتل منكم ومالكم عليَّ من حجة، لقد عبأت تعبيتي لسيدهم سعيد بن قيس فاغتاظوا، وانقطعوا عن معاوية أياماً فلم يحضروا لديه،فقال معاوية:

لعمري لقد أنصفت والنصف عادة*** وعاين طعنا في العجاج المعاين

أتدرون من لاقيتموا قل جيشكم*** لقيتم ليوثاً أصحرتها العرائن

لقيتم صناديد العراق ومن بهم*** إذا جاشت الهيجاء تحمى الضغائن

وما كان منكم فارس دون فارس*** ولكنه ما قدر الله كائن

ثم ان معاوية بن أبي سفيان أجال فكره الماكر فاستحدث مكيدة للفتك بعلي (عليه السلام) ليخلو له الجو ويبلغ ما يروم يومذاك فاستدعى إليه عبيد الله بن عمر وبعثه في أربعة آلاف مسلم ليغتالوا عليّاًً من ورائه على حين غرة لكي يستعيد عبيد الله بن عمر سمعته ومكانته بين أقرانه، فبلغ عليّاًً (عليه السلام) نبأ تلك المحاولة والمرسلين لتنفيذها فأرسل عليهم أربعة آلاف بطل من بني تميم بكامل أسلحتهم فاقتتلوا جميعاً من لدن اعتدال النهار إلى صلاة المغرب وما كان صلاتهم إلاّ التكبير عند مواقيتها ثم انكشفت ميمنة أهل الشام أمام ميسرة أهل العراق وأحدث فيهم مقتلة كبيرة حتى منتصف الليل، ولما أصبح الناس وجد أهل الشام لواءهم وليس حوله إلاّ ألف رجل فاقتلعوه وركزوه وراء موضعه الأول ووجد أهل العراق لواءهم مركوزاً وليس حوله إلاّ ربيعة تحيط (بعلي بن أبي طالب) (عليه السلام) من كل جانب فسألهم في غبش الصباح يستنبئهم فتثبت منهم وقال:

يا مرحباً بالقائلين عدلا***وبالصلاة مرحباً وأهلا

ثم قال لهاشم المرقال: خذ اللواء أمامي فوالله ما رأيت مثل هذه الليلة ثم التفت إلى أصحابه من ربيعة وقال لهم (فخر طويل لك يا ربيعة) .

ثم انطلق إلى مركزه أمس في القلب فوجد سعيد بن قيس مسيطراً على موقفه وقد توافر من حوله أصحابه متحفزين للقتال، إلاّ ان أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يجد ربيعة بينهم فبعث إليهم يأمرهم أن يبادروا إلى

أعدائهم فأرسلوا اليه أن خيل الأعداء وراء ظهورهم فليبعث عليهم رجالاً من رجاله يناجزونهم ريثما يتهيأ لهم سبيل المحاق بمن يشاء فبعث إليهم

مالك الأشتر فقال لهم ما منعكم أن تنهدوا مع أصحابكم.

فأشاروا إلى خيل أعدائهم متساندين عليها وراءهم على سواء فأمر من معه من تميم اللات. والنمر بن قاسط. وعنزة أن يتبعوه ليروا بأعينهم كيف يفر هؤلاء الطعام أمامهم كاليعافير ثم انقض بأصحابه على أعدائهم مستلئمين ومقنعين بالحديد وإذا بهؤلاء يهربون جميعاً منتشرين كالجراد فالتفت الأشتر إلى أصحابه قائلاً أرايتم الذين لا يملكون في قلوبهم ايمان الثبات والاثبات ثم انصرف بهم ملتحقاً بأصحابه وقد نشب القتال مع أهل الشام. وكان أهل الشام في تلك الساعة قد اقتطعوا فريقاً من أهل العراق وفيهم طائفة من ربيعة، غير ان الأشتر ما عتم ان استنصر بأصحابه فانصلوا بمن كان مقتطعين من جيش العراق مستعتين بالسيوف وعمد الحديد على أهل الشام، ولما رأى عبيد الله بن عمر ما طرأ على جيشه من هوان أمام مالك الأشتر أقبل عليهم متحمساً وهو يقول:

أنا عبيد الله ينميني عمر *** خير قريش من مضى ومن غبر

إلاّ نبي الله والشيخ الأغر *** قد أبطأت عن نصر عثمان مضر

والربعيون فلا سقوا المطر *** وسارع الحي اليمانون الغرر

والخير في الناس قديما يبتدر

فحمل عليه حريث بن جابر الحنفي وهو يقول:

قد صابرت في نصرها ربيعة *** في الحق والحق لهم شريعة

فاكفف فلست تارك الوقيعة *** في العصية السامعة المطيعة

حتى تذوق كأسها الفظيعة

فطعنه فصرعه أرضاً حتى جعله لا يملك حراكاً فتوسده حتى الصباح

وربط برجله فرسه ثم سلبه وأخذ سيفه الذي كان يسمى (ذا الوشاح) ولما أشرف الصباح تنادى الفريقان وعادوا إلى القتال عودا على بدء فاضطربوا بالسيوف حتى صارت كأنها مناجل وتطاعنوا بالرماح حتى تكسرت

وجثموا على الأرض يتكادمون وجهاً لوجه ويترامون بالحجارة ليس عندهم غيرها حتى تحاجزوا وهم متهافتون.

ومما ينبغي لنا بيانه استنافاً لذكر الوقائع التي تعاقبت على معارك صفين ما رواه (زياد بن النضر) وكان على مقدمى جيش عليّ (عليه السلام) قال(1):

شهدت مع عليّ (عليه السلام) مشهداً بصفين فاقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال حتى تكسرت الرماح ونفذت السهام ثم صارت إلى المسابقة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً وإنّي قد قاتلت ليلتئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلاّ قاتلت به حتى تحاشينا بالتراب وتكادمنا قياماً ثم صرنا ينظر بعضنا إلى بعض ما يستطيع واحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه فيقاتل، فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف وغلب عليّ (عليه السلام) على القتلى وأقبل على أصحاب محمّد (عليه السلام) وأصحابه فدفنهم وقد قتل كثير منهم وقتل من أصحاب معاوية أكثر، وقال عمرو بن العاص:

إذا تخازرت وما بي من خزر *** ثم خبأت العين من غير عور

الفيتني الوي بعيد المستمر *** ذا صولة في المصملات الكبر

أحمل ما حملت من خير وشر *** كالحبة الصماء في أصل الصخر

وجاء (علقمة بن تميم الأنصاري) إلى عليّ (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين ان عمرو بن العاص ينادي:

أنا الغلام القرشي المؤتمن *** الماجد الأبلح ليث كالشطن

ترضى بي الشام إلى أرض عدن *** يا قادة الكوفة من أهل الفتن

يا أيها الأشراف من أهل اليمن *** أضربكم ولا أرى أبا حسن

أعني عليّاً وابن عم المؤتمن *** كفى بهذا حزنا من الحزن

فضحك عليّ (عليه السلام) ثم قال: فأما والله لقد حاد عدو الله عني وانه لبمكاني عالم كما قال العربي (غير الومي ترقعين وانت مبصرة) ويحكم أروني مكانه لله أبوكم وخلاكم ذم.

وحمل غلامان من الأنصار وكلاهما اخوان حتى انتهيا إلى سرادق معاوية فقتلا عنده، وأقبلت الكتائب بعضها نحو بعض فاقتتلت قياماً في الركب لا يسمع السامع إلاّ وقع السيوف على البيض والدرق. وجاء (عدي بن حاتم) يلتمس عليّاً (عليه السلام) ما يطأ إلاّ على إنسان ميت أو قدم أو ساعد، فوجده تحت راية بكر بن وائل،

فقال يا أمير المؤمنين: ألا تقوم حتى تموت، فقال عليّ (عليه السلام) أدن فدنا حتى وضع اذنه عند أنفه، فقال ويحك ان عامة من معي يعصيني وان معاوية فيمن يطيعه ولا يعصيه(2).

وكان عليّ (عليه السلام) إذا أراد القتال هلل وكبر ثم قال(3):

من أي يومي من الموت أفر *** أيوم ما قدر أم يوم قدر

وأقبل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومعه لواء معاوية الأعظم وهو يقول:

أنا ابن سيف الله ذاكم خالد *** أضرب كل قدم وساعد

بصارم مثل الشهاب الواقد *** أنصر عمي ان عمي والد

بالجهد لا بل فوق جهد الجاهد *** ما أنا فيما نابني براقد

فاستقبله (جارية بن قدامة السعدي) وهو يقول:

أثبت لصدر الرمح يا ابن خالد *** تبت لليث ذى فلول حاد

ينصر خير راكع وساجد *** من حقه عندي كحق الوالد

ذاكم عليّ كاشف الأوايد

وأطعنا مليا، ومضى عبد الرحمن وانصرف جارية بينما عبد الرحمن لا يأتي على شيء إلاّ أهمده وهو يقول:

إني إذا ما الحرب قرت عن كبر *** تخالني أخزر من غير خزر

أقحم والخطي في النقع كثر *** كالحية الصماء في رأس الحجر

أحمل ما حملت من خير وشر

فغم ذلك عليّاً (عليه السلام).. وأقبل عمرو بن العاص في خيل من بعده فقال:

أقحم يا ابن سيف الله فانه الظفر، وأقبل الناس على (الأشتر) فقالوا يوم من أيامك الأول، وقد بلغ لواء معاوية حيث ترى، فأخذ الأشتر لواءه متقدما أصحابه فحمل وهو يقول:

إني أنا الأشتر معروف الشتر *** إني أنا الأفعى العراقي الذكر

لا من ربيعة ولا حي مضر *** لكنني من مدحج الغر الغرر

فضارب القوم حتى ردهم على أعقابهم فرجعت خيل عمرو فقال النجاشي في ذلك:

رأينا اللواء لواء العقاب *** يقحمه الشانىء الأخزر

كليث العرين خلال العجاج *** وأقبل في خيله الأبتر

دعونا لها الكبش كبش العراق *** وقد خالط العسكر العسكر

فرد اللواء على عقبه *** وفاز بحظوتها الأشتر

كما كان يفعل في مثلها *** إذا ناب معصوصب منكسر

فإن يدفع الله عن نفسه *** فحظ العراق بها الأوفر

إذا الأشتر الخير خلى العراق *** فقد ذهب العرف والمنكر

ولما رد لواء معاوية فاشلاً ورجعت خيل عمرو، انتدب همام بن قبيصة وكان من أشتم الناس لأمير المؤمنين (عليه السلام) ومعه لواء هوازن فقصد لمذحج وهو يقول:

إني إذا دعيت للنزال *** أقدم اقدام الهزبر العالي

أهل العراق انكم من (بالى) *** كل تلادى وطريق مالي

حتى أنال فيكم المعالي *** أو أطعم الموت بكم حبالي

في نصر عثمان ولا أبالي

فقال عدي بن حاتم لصاحب لوائه: أدن مني، فأخذ منه اللواء وحمل وهو يقول:

يا صاحب الصوت الرفيع العالي ***ان كنت تبغي في الوغى نزالي

فادن فإني كاشف عن حالي *** نفدي عليّاً مهجتي ومالي

وأسرتي تتبعها عيالي

فضربه حتى قتله وسلب لواءه.

ثم حمل (خزية بن ثابت) وهو يقول:

قد مر يومان وهذا الثالث *** هذا الذي يلهث فيه اللاهث

هذا الذي يبحث فيه الباحث *** كم ذا يرجى ان يعيش الماكث

الناس موروث ومنهم وارث *** هذا عليّ من عصاه ناكث

فقاتل حتى قتل، ثم خرج (خالد بن الوليد الأنصاري) وهو يقول:

هذا عليّ والهدى أمامه*** هذا لوا نبينا قدامه

يقحمه في نفعة اقحامه

فطاعن ساعة ثم رجع إلى موقعه وحمل جندب بن زهير وهو يقول:

هذا عليّ والهدى حقا معه *** يا ربّ فاحفظه ولا تضيعه

فإنه يخشاك ربّي فارفعه *** نحن نصرناه على من نازعه

صهر النبي المصطفى قد طاوعه *** أول من بايعه وتابعه

وأقبل الأشتر يضرب بسيفه وهو يقول:

اضربهم ولا أرى معاوية*** الأخزر العين العظيم الحاويه

هوت به في النار ام هاوية *** جاوره فيها كلاب عاويه

أعوى طغاماً لا هداه هادية

فأختلط أمر الناس حتى ترك أهل الرايات مراكزهم وتفرق الناس عن عليّ (عليه السلام) فأتى ربيعة ليلاً على رسله، فكان فيهم وتعاظم الأمر وأقب (عدي بن حاتم) يطلب عليّاً في موضعه الذي تركه فيه فلم يجده فطاف يطلبه، فأصابه في مصاف ربيعة فقال: يا أمير المؤمنين أما إذا كنت حياً فالأمر أمم، ما مشيت إلاّ على قتيل وما أبقت هذه الوقعة لنا ولهم عميداً، فقاتل حتى يفتح الله عليك فإن في الناس بقية بعد، وأقبل (الأشعث بن قيس) يلهث (لهاثاً) فلما رأى عليّاً هلل وكبر وقال: يا أمير المؤمنين: خيل كخيل ورجال كرجال ولنا الفضل إلى ساعتنا هذه، فعد إلى مقامك الذي كنت فيه فإن الناس إنما يظنونك حيث تركوك.

وأرسل سعيد بن قيس يقول: اننا مشتغلون بأمرنا مع القوم وفينا فضل فإن أردت أن نمد أحداً أمددناه، فأقبل عليّ (عليه السلام) على ربيعة فقال لهم أنتم درعي ورمحي قال نصر بن مزاحم فربيعة تفخر بهذا الكلام إلى اليوم، فقال عدي بن حاتم: يا أمير المؤمنين إن قوماً أنت بهم وكنت فيهم في هذه الجولة لعظيم حقهم علينا، والله انهم لصبر عند الموت.. أشداء عند القتال، وركب عليّ (عليه السلام) فرسه الذي كان لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكان يقال له المرتجز، فتقدم أمام الصفوف، ثم قال: بل البغلة فقدمت له البغلة الشهباء بغلة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فركبها ثم تعصب بعمامة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) السوداء ثم نادى: أيها الناس من يشتري نفسه لله يرحب، هذا يوم له ما بعده ان عدوكم قد قرح كما قرحتم. فانتدب له آلاف من المسلمين قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم فتقدمهم عليّ (عليه السلام) على بغلة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول:

دبوا دبيب النمل لا تفوتوا *** وأصبحوا بحربكم وبيتوا

حتى تنالوا الثأر أو تموتوا *** او لا فإني طالما عصيت

قد قلتوا: لو جئتنا فجيت *** ليس لكم ما شئتم وشيت

بل ما يريد المحيي المميت

وتبعه (عدي بن حاتم) بلوائه وهو يقول:

أبعد عمار وبعد هاشم *** وأين بديل فارس الملاحم

نرجو البقا مثل حلم الحالم *** وقد عصفنا أمس بالأباهم

فاليوم لا تفزع سن نادم *** ليس امرؤ من يومه بسالم

وتقدم الأشتر وهو يقول:

حرب بأسباب الردى تأجج *** يهلك فيها البطل المدجج

يكفيكها همدانها ومذحج *** روحوا إلى الله ولا تعرجوا

دين قويم وسبيل منهج

وحمل الناس حملة واحدة. فلم يبق لأهل الشام صف إلاّ انتفض وأهمدوا ما أتوا عليه منهم حتى افضى الأمر إلى مقربة من مضرب معاوية وعلي (عليه السلام) يضربهم بسيفه وهو يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية *** الأخزر العين العظيم الحاوية

هوت به في النار ام هاوية

فدعا معاوية بفرسه لينجو عليه فلما وصل وضع رجله في الركاب تمثل بقول عمرو بن الأطنابة:

أبت لي عفني وأبى بلانى *** وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وأقدامى على المكروه نفسي *** وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت *** مكانك تحمدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات *** وأحمي بعد عن عرض صحيح

بذى شطب كلون الملح صاف *** ونفسي ما تقر على القبيح

وقال: يا ابن العاص اليوم صبر وغداً فخر فقال عمروا: صدقت وثنى رجله من الركاب فاستصرخ بعك والأشعريين فوقفوا دونه وجالدوا عنه حتى كره كل من الفريقين صاحبه وتحاجز الناس.

ثم ان معاوية لما أسرع أهل العراق في أهل الشام قال لهم هذا يوم تمحيص ان القوم قد أسرع التهافت فيهم كما أسرع فيكم اصبروا يومكن هذا وخلاكم ذم.

وحض عليّ (عليه السلام) أصحابه لذلك، فقام اليه الأصبغ بن نباته التميمي فقال: يا أمير المؤمنين انك جعلتني على (شرطة الخميس) وقدمتني في الثقة دون الناس وانك اليوم لا تفقد لي صبراً ولا نصراً.

أما أهل الشام فقد هدهم ما أصبنا منهم، ونحن فينا بعض البقية فاطلب

بنا أمرك وأذن لي في التقدم. فقال (عليه السلام) تقدم باسم الله العظيم فتقدم بأصحابه نحو أهل الشام وطاعتهم ثم رجع إلى موقفه.

وبرز يومئذ عروة بن داود الدمشقي لعلي (عليه السلام) متحدياً إياه فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلم إليَّ فتقدم إليه عليّ (عليه السلام) فقال له أصحابه: ذر هذا الكلب، فإنه ليس لك بخطر فقال والله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه، ثم حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين سقطت احداهما

يمنة والأخرى يسرة فارتج العسكران لهول الضربة، وقال ابن عم لعروة بن داود. واسوء صباحاه قبح الله البقاء بعد داود وحمل على عليّ (عليه السلام) فطعنه فبرأه ثم قنعه ضربة فألحقه قتيلاً بعروة بن داود ومعاوية واقف على التل يشاهد ما يجري فقال: تبا لهذه الرجال وقبحاً أما فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع. فقال له الوليد بن عقبة أبرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته فقال: والله لقد دعاني إلى البراز حتى استحييت من قريش وإني والله لا أبرز إليه ما جعل العسكر بين يدي الرئيس وقاية له فقال الوليد: ألهو عن هذا كأنكم لم تسمعوا نداءه، فقد علمتم انه قتل جريئاً وفضح عمراً ولا أرى أحداً يتحكك به إلاّ قتله.

ومن بواعث العزم المجيد في متابعة هذا السياق الطاهر أن نذكر للبل جبلة بن عطية الذهلي الرقاشي حالة نفسية طرأت عليه في يوم من أيام صفين جعلته يندفع متحمسا نحو الحضين بن المنذر الرقاش الذي كان يحمل راية الإمام عليّ (عليه السلام) حينذاك وقال له : هل لك أن تعيرني رايتك هذه فأحملها بدلاً منك وأعيدها إليك بعد ساعة ولك فخرها فلقد أثارتني هذه الدماء التي يريقها أصحاب معاوية بن أبي سفيان ليرفعوا شأن معاوية إلى مستوى خلفاء رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وهم غافلون؟ فأدرك الحضين بن المنذر الرقاش ان يصيب أجرا في مقاتلة أعداءه دفاعاً عن مشائي عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فناوله إياها شاكراً له السلامة ولما أمسك بها التفت إلى اتباع تلك الراية وقال لهم: يا أنصار الحق ان الجنة لا يدخلها إلاّ الصابرون

على فرائض الله وأوامره وليس شيء مما فرض الله على العباد أشد من الجهاد وهو أفضل أعمال ثواباً فإذا رأيتموني قد شددت فشدوا، ويحكم أما تشتاقون إلى الجنة؟ أما تحبون أن يغفر الله لكم؟ فاقتحم جيوش معاوية مع أصحابه

ص 107

وهو مستهدف معاوية بالتعيين وقاتل قتال الأبطال الشرفاء حتى استشهد فتناول الراية بطل من أصحابه وعاد فيها الي الحضين بن المنذر الرقاش تغمد الله جبلة بن عطية الذهلي الرقاشي برحمته الواسعة. وكذلك كان كثير من أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) يفعلون في معاريض صفين لئلا يتسنى لمعاوية أن يعتلي بمعاوية أصحابه دست السيطرة على الامبراطورية الإسلامية.

ومن الأحداث الناصعة الشريفة التي استعلنت للمحاربين عموماً في أيام صفين تصريحات عمار بن ياسر وهو يذكر فيها قول النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) له بانه تقتله الفئة الباغية ففي يوم صارم من أيام صفين قام عمار بن ياسر خطيباً في أنداده من أنصار عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقال: في خلال تصريحاته هذه: يا عباد الله أمضوا إلى من يطلبون بدم عثمان، والله ما أظنهم يطلبون بدمه ولكن القوم ذاقو الدنيا فاستحبوها واستمرأوها وعلموا: لو ان الحق لزمهم لحال بينهم وبين ما يرغبون فيه منها، بينما لم يكن للقوم سابقة أثيرة في الإسلام يستحقون بها الطاعة والولاية كمعاوية بن أبي سفيان فخدعوا أتباعهم بأن قالوا لهم قتل إمامنا مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً وتلك ذريعة بلغوا بها ما ترونه أمامكم ولولا هي ما بايعهم من الناس رجلان اللهم انك لتعلم اني لو أعلم ان رضاك ان أضع ظبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت ثم نادى أين من يبغي رضوان ربّه ويذهب معي ولا يؤوب إلى مال ولا ولد؟ فاتته عصابة من الناس فمضى بهم إلى معسكر هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو على أوفاز أن يحمل راية الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) يتوجه بها إلى ميدان القتال فانضم إليه عمار بن ياسر ومن معه من أنصار أمير المؤمنين (عليه السلام) (4) فودعهم

ص 108

أمير المؤمنين وانصرفوا.

وقد تذكر عمار بن ياسر حينذاك موقفه يوما في معركة اليمامة وهو قائم على صخرة عالية يصيح يا معشر المسلمين: أمن الجنة تفرون؟ أنا عمار بن ياسر هلموا إليَّ فقال أعداء الله(5).

ثم اتجه هاشم المرقال باتباعه جميعاً إلى الميدان ثم وقف مليا والقى بنظرة نحو موقف معاوية فرأى من بعيد جمهرة غفيرة هنالك فقال لمن حوله : من أولئك؟ فقيل لهم انّهم أصحاب ذو الكلاع، ثم أنعم النظر فرأى جنداً، فسأل : ومن أولئك؟ فقيل له انهم قريش وأبعاض من أهل المدينة، فقال: قومي لا حاجة لي في قتالهم ثم سأل ومن عند هذه القبة البيضاء؟ فقيل له معاوية وخلصاؤه ثم سأل فأين أرى دونهم اسوة فقيل له ذاك عمرو بن العاص وولده ومواليه. فأخذ الراية فهزها هزة عنيفة، فقال رجل من أصحابه تمهل قليلاً ولا تعجل ، فقال هاشم:

قد أكثر لومي وما أقلا *** إني شريت النفس لن أعتلا

أعور يبغي أهله محلا *** قد عالج لحياة حتى ملا

لابد أن يغل أو يغلا *** أو شلهم بذى الكعوب شلا

مع ابن عم أحمد المعلى *** أول من صدقه وصلا

وكان في أزائه عمار بن ياسر وكان لا ينفك يحرضه على التقدم المتواصل فيرضخ حياء من عمار فيتقدم ويركز رايته وينظر يمنة ويسرة ويرمي بنظره بعيداً إلى من أمامه من جيش أعدائه فيعاود عمار تشجيعه على التقدم

واختراق حشود العدو بتضحيات عزيزة في حين ان هاشماً كان يبغي الاقتصاد في تقديم الجنود بين يديه، وكان عمرو بن العاص يلحظ من بعيد أسلوب هاشم المرقال في زحفه على جيوش معاوية فيقول لمن حوله لئن استمر صاحب الراية السوداء على هذا الأسلوب في الزحف لقد فنيت أبطال العرب في صفين، ثم يعاود عمار نخسه لهاشم بالرمح فيتقدم إلى أمام وكان بازاء هاشم وعمار أبو الأعور السلمي حتى التقى الزحفان واقتتلا قتالا هادراً لم يسمع السامعون بمثله ولم يبصر المبصرون ضحايا كالضحيا التي وقعت يومئذ.

وكانت الجيوش المنتظمة أمام قبة معاوية خمسة صنوف متساندة وقد بلغت فيهم الحماسة كونهم قد قيدوا أنفسهم بعمائمهم لئلا تحدثهم أنفسهم بأن يتزحزحوا عن أماكنهم فأباد منهم هاشم المرقال ثلاثة صفوف متتابعة حتى باشروا ابادة الصف الرابع وفيهم الكثرة الكاثرة من قيلة عك الشام من تخديم سفيان العكيين أي ضرب سيقانهم بالسيوف فاضطر العكيون إلى البروك كما تبرك الجمال واللجوء إلى الأحجار والصخور يقذفون الهمدانين دفاعاً عن أنفسهم وعن معاوية ولبثوا منذ اعتدال النهار إلى مغرب الشمس على تلك الحال حتى كشف أهل العراق ميمنة أهل الشام ثم كشف أهل الشام ميسرة أهل العراق والقتل بينهما ذريع، ولبثوا جميعاً

على أعياء وتهافت بليغين في تلك الليلة حتى إذا ما اندلع الصباح وجد أهل الشام لواءهم هنالك وليس حوله سوى ألف رجل لا يدرون ما يصنعون فاقتلعوه وركزوه وراء موضعه الراهن عندهم ورأى أهل العراق لواءهم مركوزاً وحوله قبيلة ربيعة محدقين بالإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وهو لا يدري من هم تمام الدراية حتى إذا ما أذن مؤذنه بينهم عرفهم وقال وهو متجه إلى الصلاة:

يا مرحبا بالقائلين عدلا *** ويا مرحباً بالقائلين عدلا

ولما انتهى من صلاته قال لهاشم بن عتبة، خذ اللواء امامنا فوالله ما رأيت مثل هذه الليلة السالفة فخرج هاشم باللواء وركزه في القلب.

ولقد بات معاوية في تلك الليلة يبحث مع عمرو بن العاص من مكيدة للقضاء على الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فانتهيا جازمين إلى تهيئة أربعة آلاف وثلاثمائة جندي يغتالونه على حين غرة من ورائه في اثناء القتال، فأدركت همدان ان حيائيا يوشك أن يخترم عليّاً (عليه السلام) فضاعفوا حراستهم له وانتشارهم حوله لئلا يقترب من ورائه أحد يجهلون سيماءه وأساريره قال الأحنف بن قيس إني لواقف إلى جانب عمار بن ياسر فتقدمنا حتى إذا أمن هاشم بن عتبة قال له عمار: احمل فداك أبي وأمي، ونظر عمار إلى رقة في الميمنة فقال له هاشم بن عتبة: رحمك الله يا عمار انك رجل تأخذك حقة في الحرب، وإني إنما أزحف باللواء زحفاً وأرجو أن أنال بذلك حاجتي، وإني ان خففت لم آمن الهلكة. قال معاوية لعمرو بن العاص ويحك، ان اللواء اليوم مع هاشم بن عتبة وكان من قبل يرفل به ارفالا وان زحف به اليوم فإنه لليوم الأطول لأهل الشام وان زحف في عنق من أصحابه فإني لأطمع أن يقتطع فلم يزل به عمار حتى بصر به معاوية من بيد فوجه إليه حماة أصحابه وكان فيهم عبد الله بن عمرو بن العاص ومعه سفينان وقد تقلد احدهما وهو يضرب بالآخر فأطاقت به خيل عليّ بن أبي طالب فقال عمرو جازعا... يا الله.. يا رحمن، إبني ابني فقال له معاوية اصبر فإنه لا بأس عليه فقال له عمرو: لو كان يزيد فهل صبرت؟ ولم يزل حماة أهل الشام يذبون عنه حتى نجا هارباً على فرسه ومن معه فنادى حينذاك هاشم بن عتبة في الناس عند المساء من كان يريد الله والدار الآخرة فليقبل

فشد بعصابة ممن التحق به على أصحاب الشام مراراً وقد صمدوا صابرين له، فالتفتت إلى أصحابه وقال: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم فإن ما ترون منهم هي حمية العرب في الحرب.

واعلموا انّهم لعلى الضلال وانكم لعلى الحق، يا قوم : اصبروا وصابروا وامشوا إلى عدونا على تؤدة رويداً واذكروا الله ولا يسلم أحدكم أخاه ولا تكثروا الالتفات، وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وقاتل هشام قتالاً شديداً حتى أتت كتيبة لتنوخ فشدوا على الناس فقاتلهم هاشم حتى قتل منهم تسعة نفراً وعشرة فحمل عليه الحارث بن المنذر التنوخي فطعنه خلسة فسقط الى الأرض وفي ذلك الوقت بعث إليه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أن قدم لواءك فقال للرسول أنظر إلى بطني فإن الدماء تتدفق منها فانصرف الرسول إلى عليّ (عليه السلام) فأخبره بما رأى فاجتاز عليه رجل وهو صريع بين القتلى فقال له: يا هذا اقرأ أمير المؤمنين السلام وقل له : انشدك بالله ألا أصبحت وقد ربطت مقاود خيلك بأرجل القتلى فإن الدبرة تصبح غداً لمن غلب على القتلى فانطلق الرجل فأخبرعليّاً (عليه السلام) بذلك فسار في بعض الليل حتى جعل القتلى خلف ظهره وقد أخذ الراية رجل من بكر بن وائل فرفع هاشم رأسه فإذا عبيد الله بن عمر قتيلاً إلى جانبه فزحف إليه حتى دنا منه فعض على ثديه حتى ينبت فيه منابت نيابه ثم مات وهو على صدر عبيد الله بن عمر(6) ولما قتل هاشم بن عتبة بن أبي وقاص جزع الناس عليه ولا سيما الأبطال المخلصون وأصيب معه جماعات من بني أسلم وصرعوا حوله فمر عليهم أمير المؤمنين فتفاقم عليهم جزعه الطاهر وقال وهو يشكر لهم اخلاصهم في الذب على حياض الدين.

جزى الله خيراً عصبة أسلمية***صباح الوجوه صرعوا حول هاشم

يزيد وعبدالله بشر ومعب *** وسفيان وابنا هاشم ذي المكارم

وعروة لا يبعد ثناه وذكره *** إذا اخترطت يوماً خفاف الصوارم

وقال عبد الله بن هاشم يرثي أباه حينذاك بهذا الرجز:

يا هاشم بن عتبة بن مالك *** اعزز بشيخ من قريش هالك

تحبطه الخيلان بالسنابك *** في أسود من نقعهن حالك

أبشر بحور العين في الأرائك *** والروح والريحان عند ذلك

وقال أبو الطفيل عامر بن وائلة يرثي هاشم بن عتبة بهذا الرجز:

يا هاشم الخير جزيت الجنة *** قاتلت في الله عدو السنّة

وتارك الحق وأهل الظنة *** أعظم بما فزت به من منه

صبرني الدهر كأني شنه *** يا ليت أهلي قد علوني رنه

أما عمار بن ياسر فقد كان في غضون أيام صفين قد أفرغ على جسمه درعاً ضافية يصول بها في الميدان ويخاطب أصحابه منادياً أيها الناس الرواح إلى الجنة وقال في آخر يوم من أيام حياته حين نظر إلى راية عمرو بن العاص في الميدان والله ان هذه الراية بعينها قد قاتلتها قبل اليوم في ثلاث معارك وما هذه بارشدهن ثم قال:

نحن ضربناكم على تنزيله *** فاليوم نضربكم على تأويله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله *** ويذهل الخيل عن خليله

أو يرجع الحق إلى سبيله

وأجمع الرواة على ان عماراً قد استسقى في آخر تلك المعارك التي خاض غمراتها وقد اشتد ظمأه فأتته امرأة طويلة الساعدين تسقيه قال الراوي والله ما أدري أعمر كان معها أو أدواة فيها ضياح من لبن فقال – رحمه الله – حين شرب من ذلك اللبن: الجنة تحت الأسنة:

اليوم القى الأحبة *** محمّداً وصحبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل وفي رواية قيل ان الذي جاءه باللبن غلام اسمه راشد ثم حمل في الميدان فحمل عليه ابن جون السكسكي وأبو العادية الفزاري فأما أبو معاوية فطعنه غدراً وأما ابن جون فانه احتز رأسه(7).

وفيمن بالذكر ان كثيرا من أصحاب معاوية كانوا يجيئون إلى معاوية وعنده عمرو بن العاص فيزعمون بانهم قتلوا عمار بن ياسر فيقول عمرو ابن العاص لكل واحد منهم فما كان آخر كلامه فيخلطون في أجاباتهم حتى أقبل عليهما ابن جون السكسكي وأعلن بأنه هو الذي قتل عمار بن ياسر فسأله عمرو بن العاص مختبراً، فما كان آخر كلامه قال إني قد سمعته يقول:

اليوم ألقى الأحبة *** محمّداً وحزبه

فقال له عمرو بن العاص: صدقت يا ابن جون أنت صاحبه ووالله ما ربحت يداك بقتله ولكن أسخطت ربّك الكريم.

وقد احتج رجلان في سلب عمار بن ياسر عند عبد الله بن عمرو بن العاص فصاح بهما ان أخرجا عني ويحكما ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قال: (اولعت قريش بعمار، ما لهم ولعمار... يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى

النار، ألا ان قاتله وسالبه في النار).

فسمع معاوية ذلك بعد قتله فقال: انما قتله من أخرجه فيخدع بذلك كثيراً من أهل الشام لئلا يدركوا سوء ما فعلوه بعمار وقد قال مالك الأشتر يومذاك مجيباً، معاوية بن أبي سفيان على ابتهاجه بمقتل عمار بن ياسر:

نحن قتلنا حوشيا *** لما غدا قد أعلما

وذا الكلاع قبله *** ومعبدا إذ أقدما

ان تقتلوا منا *** أبا اليقضان شيخا مسلما

فقد قتلنا منكم *** سبعين رأسا مجرما

أضحوا بصفين وقد *** لاقوا نكالا مؤثما

وعندما سمع عمرو بن العاص ما قاله مالك الأشتر أجابه ترضية لنزعة معاوية بن أبي سفيان الدفينة:

نحن قتلنا هاشماً وابن ياسر *** ونحن قتلنا ابنى بديل تعسفا

وفي ذلك اليوم بعث أمير المؤمنين (عليه السلام) خيلا ليحبسوا عن معاوية مادة معيشة لجيشه فعلم الضحاك بن قيس الفهري بذلك فأخبر به معاوية فأمره معاوية أن ينطلق بنفسه لتحرير تلك المادة بين يدي الإمام (عليه السلام) فأزالها بعد قتال عنيف فلما علم الإمام (عليه السلام) ما فعله الضحاك الفهري يومذاك أمر أصحابه أن يتهيأوا للقتال في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي عندما التحم الجيشان في القتال انهزم عتبة بن أبي سفيان ناجياً بنفسه من المعركة نحو الشام تاركاً وراءه غفيراً من القتلى

والجرحى، فبرز حينذاك إلى الميدان (أبو الأعور السلمي) وهو يقول:

أضربهم ولا أرى عليّاً *** كفى بهذا حزنا عليّاً

ثم كانت وقعة (الخميس) بين الفريقين ضارية أوسع الضراوة فحينما التقى الفريقان في اليوم الأول من أيام وقعة الخميس قتل العبد الصالح خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فحضرت على جثمانه ابنته ضبيعة وأنشأت ترثيه قائلة:

عيني جودي على خزيمة بالدمع *** قتيل الأحزاب يوم الفرات

قتلوا ذا الشهادتين عتوا *** أدرك الله منهم بالتراث

قتلوه في فنية غير عزل *** يسرعون الركوب للدعوات

نصروا أحمد الموفق للعدل *** ودانوا بذاك حتى الممات

لعن الله معشراً قتلوه *** ورماهم بالخزي والآفات

وروى زياد بن النضر وكان على مقدمة جيش الإمام (عليه السلام) في صفين خلال وقعة الخميس قال: شهدت مع عليّ (عليه السلام) بصفين فاقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال متوالية حتى انكسرت الرماح ونفذت السهام ثم صارت المقاتلة بالسيوف فاجتلدنا بها إلى منتصف الليل حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً صراعا ولم يبق شيء من السلاح إلاّ قاتلنا به فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف وغلب عليّ (عليه السلام) على أرض القتلى أسرع إلى دفن أصحاب محمّد فدفنهم وقد قتل كثير منهم ومن أصحاب معاوية وكان القتلى من

أصحاب معاوية أكثر وقال عمرو بن العاص متبجحا(8):

إذا تخازرت وما بي من خزر *** ثم خبأت العين من غير عور

الفيتني الوي بعيد المستمر *** ذا صولة في المصمئلات الكبر

أحمل ما حملت ما خير وشر *** كالحية الصماء في أصل الصخر

وجاء علقمة بن تميم الأنصاري إلى عليّ (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين ان عمرو بن العاص ينادي:

أنا الغلام القرشي المؤتمن*** الماجد الأبلح ليث كالشطن

ترضى بي الشام إلى أرض عدن*** يا قادة الكوفة يا أهل الفتن

يا أيها الأشياخ من أهل اليمن*** أضربكم ولا أرى أبا الحسن

أضربكم ولا أرى أبا الحسن*** كفى بهذا حزنا من الحزن

فأبتسم عليّ (عليه السلام) وقال فأما والله لقد حاد عدو الله عني وانه لبكاني عالم كما قال المثل العربي (غير الوهي ترقعين وأنت مبصرة) وحمل وقتذاك غلامان متحمسان من الأنصار وهما أخوان حتى انتهيا إلى مقربة من سرادق معاوية فقتلا عنده، ثم أقبلت الكتائب بعضها نحو بعض فاقتتلت وما يسمع السامع إلاّ وقع السيوف على البيض والدرق فقال عدي بن حاتم مرتجزاً:

أقول لما ان رأيت المعمعة *** واجتمع الجندان وسط البلقعة

هذا عليّ والهدى حقاً معه *** يا رب فاحفظه ولا تضيعه

فانه يخشاك ربّي فارفعه *** ومن أراد غدره فضعضعه

ونادى عمرو بن العاص في ذلك اليوم خادمه وردان أن يقدم لواءه بعض التقديم على حذر فأرسل الإمام عليّ (عليه السلام) إلى أهل الكوفة والبصرة أن يحملوا جميعاً على أهل الشام فاقتتلوا بأسرهم اقتتالاً فاتكاً جدا فخرج رجل من أهل الشام متبختراً فنادى من يبارز؟ فخرج إليه رجل من أهل العراق فاقتتلا أفدح قتال ثم ان الرجل العراقي خالس الشامي حتى أصابه مسابقة فلم يسقط على ظهر جواده ثم اشتغل نهزة فضرب يده فقطعها، فرمي الشامي سيفه إلى أصحابه قائلاً لهم دونكم سيفي هذا فاستعينوا به على أعدائكم فأخذوه فاشتراه معاوية من أولياء المقتول بعشرة آلاف ثم خرج رجل آخر من أهل الشام مبارزاً أمام أهل العراق فلم يتطوع أحد للخروج إليه فقال رجل من أهل العراق يدعى هاني بن نمر الحضرمي وكان موعوكاً سبحان الله ما يمنع أحدكم أن يخرج إلى هذا الشامي فيخضد شوكته فلولا إني موعوك واجد ضعفا في جسمي لخرجت والله إليه من غير ابطاء ومع ذلك فقد خرج إليه بالرغم من وعكه فإذا هو رجل من قومه وإن بينهما لصلة قربى من قبل النساء فقال له يا هاني بن نمر الحضرمي إني لم أخرج إليك خروجي هذا وأنا موطن نفسي على القتل ولست أبالي أن أنت قتلتني أو سواك ثم تجاولا بعض التجوال واختلفا اخيراً ضربتين فقتله هاني بن نمر فأسرع أصحاب هاني واشتبكوا بأسرهم في مقتله فادحة أسفرت أبادة اثنين وثلاثين رجلاً من كلا المعسكرين وفيما حدث ذلك الاشتباك الفادح في

جانب الميدان أرسل الإمام عليّ (عليه السلام) إلى أصحابه أن يضربوا من كل مكان سانح لهم فهجموا عليهم بحسب راياتهم المعلومة قبلئذ بالرماح والسيوف وعمد الحديد فكانت هجمة ضاربة ندرت فيها الرؤوس وتقطعت الأوصال وسالت الدماء وتعذر على الناس أداء صلواتهم إلاّ تكبيراً في مواقيتها قال عبد الرحمن بن حاطب: خرجت يومذاك ألتمس أخي بين القتلى فإذا برجل أمسك بثوبي وهو صريع بين القتلى فاستدرت لأرى ماذا هناك وإذا عبد الرحمن بن كندة صريع على الرمال فتألمت كثيراً من أجله وسألته ان كان يطلب شربة ماء فقال : لقد تخرق جسمي حتى لم أملق شرب الماء ولكن أوصيك أن تبلغ أمير المؤمنين أن ينقل جرحى أصحابه حتى يجعلهم وراء الميدان فإن الغلبة لمن فعل ذلك وأسلم الروح وشيكاً سافر الوجه فجئت إلى أمير المؤمنين وأبلغته رسالة عبد الرحمن رحمه الله تعالى، ثم نادى أصحابه أن ينقلوا جرحى أصحابه إلى ما وراء الميدان ففعلوا ولما انشمر ضوء الصباح أقبل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية الأعظم وهو يرتجز قائلاً:

أنا ابن سيف الله ذلغم خالد *** أضرب كل قدم وساعد

بصارم مثل الشهاب الواقد *** أنصر عمي ان عمي خالد

بالجهد لا بل فوق جهد الجاهد *** ما أنا فيما رابني براقد

فاستقبله جارية بن قدامة السعدي وهو يرتجز مجيباً:

أثبت لصدر الرمح يا ابن خالد *** أثبت لليث ذي فنون حارد

ص 119

من أسد خفان شد الساعد *** ينصر خير راكع وساجد

من حقه عندي لحق الوالد *** ذاكم عليّ كاشف الأوابد

وتطاعنا بين العسكرين بعض الوقت فلم يسرع أحدهما في الآخر فانصرف جارية وانطلق عبد الرحمن بن خالد وهو يفتك بمن يعترض سبيله وهو يقول:

إني إذا ما الحرب فرت عن كبر *** نخالني أخزر من غير خزر

أقحم والخطي في النقع كثر *** كالحية الصماء في رأس الحجر

أحمل ما حملت من خير وشر

نعم ذلك عليّاً (عليه السلام) وأقبل عمرو بن العاص في خيل ليربط جأش عبد الرحمن وأنشأ يثير الحماسة فيه قائلاً أقحم ابن سيف الله فإنه الظفر، فأنطلق لفيف من الناس إلى الأشتر وقالوا له: هذا يوم من أيامك الأول وقد بلغ لواء معاوية مع عبد الرحمن بن خالد حيث تراه من بعيد فأخذ الأشتر لواءه المعلم وحمل على أعدائه وهو يرتجز ويقول:

إني أنا الأشتر معروف الشتر***إني أنا الأفعى العراقي الذكر

لا من ربيعة ولا حي مضر *** لكنني من مذحج الغر الأغر

ونافد بأعدائه أشد نفاذ حتى نكى فيهم وردهم على أعقابهم خاسئين ولما نكص لواء معاوية الأعظم مع خيل عمرو بن العاص القهقري انزعج معاوية ودعا إليه همام بن قبيصة وكان لا ينفك يشتم عليّاً ويتمنى لو يفتك به فانتدبه حانقا ليحمل لواء هوازن ويهجم على قبيلة مذحج فقصد مذحجاً من فوره وهو يرتجز:

ص 120

إني إذا دعيت للنزال *** أقدم اقدام الهزبر العالي

فبرز إليه عدي بن حاتم حاملا رايته المعلمة وهو يقول:

يا صاحب الصوت الرفيع العالي *** ان كنت تبغي في الوغى نزالي

فادن فإني كاشف عن حالي *** نفدي عليّاً مهجتي ومالي

وأسرتي تتبعها عيالي

فضربه بعد جولة يسيرة وسلب لواءه وعاد إلى موقعه من الميدان، ثم اختلط أمر الناس واشتد اختلاطهم فترك أهل الرايات مراكزهم فانصرف أمير المؤمنين عند المساء نحو مواقع ربيعة من يومذاك نفتخر بهذا الاطراء لهم من أمير المؤمنين (عليه السلام) ولما أصحب الصباح ركب أمير المؤمنين فرسه الذي كان لرسول الله وكان يقال له المرتجز فتوافرت حواليه كتائب جيشه ثم نادى أيها الناس من يشري نفسه لله يربح هذا يوم له ما بعده من افتخار ان عدوكم قد قرح كما قرحتم فانتدب له زهاء عشرة آلاف مستجيب قد وضعوا سيوفهم على عواتقهم ثم تقدمهم أمير المؤمنين وهو يرتجز بصوت عظيم:

دبوا دبيب النمل ولا تفوتوا *** وأصبحوا بحربكم وبيتوا

حتى تنالوا النار أو تموتوا *** حولي فإني طالما عصيت

قد قلتموا لو جيئتنا فجيبت *** ليس لكم ما شئتموا وشيت

بل ما يريد المحيي المميت

وتبعه عدي بن حاتم وهو يرتجز:

أبعد عمار وبعد هاشم*** وابن بديل فارس الملاحم

فاليوم لا تقرع سن النادم*** ليس امرؤ من حتفه بسالم

ثم تقدم الأشتر مستبسلا وهو يرتجز:

حرب بأسباب الردى تأجج ***يهلك فيها البطل المدجج

يكفيكها همدانها ومذحج *** روحوا إلى الله ولا تعرجوا

دين قويم وسبيل منهج

وحمل الناس بأسرهم حملة متعاضدة متساندة حتى لم يتركوا صفوف أعدائهم ثباتاً في عرصة الميدان فذهبوا منهزمين بتلك الحال نحو فسطاط معاوية عسى أن يجد لهم ملاذا بينما كان أمير المؤمنين لا ينفك يوسعهم ضرباً بسيفه وهو يقول بصوت جهوري مرعب:

أضربهم ولا أرى معاوية *** إلاّ خزر العين العظيم الحاوية

هوت به في النار ام معاوية

وحين رأى معاوية بن أبي سفيان عليّاً (عليه السلام) في مقدمة المهاجمين دعا إليه بفرسه تمهيداً لينهزم على ظهره فينجو تذكر أبياتاً من الشعر لعمرو ابن الاطنابة يخاطب بها نفسه:

ابث عفتي وأبى بلائي *** وأخذ الحمد بالثمن الربيع

واقدامي على المكروه نفسي*** وضربي هامة البطل المشيح

وقولي كلما جشأت وجاشت *** مكانك تحمدي أو تستريحي

لأدفع عن مآثر صالحات*** وأحيى بعد عن عرضى صحيح

بذي شطب كلون الملح صاف *** ونفسي ما تقر على القبيح

ثم التفت إلى عمرو بن العاص وكان واقفاً بجانبه فقال له: اليوم صبر وغدا فخر، فأجابه قائلاً: صدقت يا أبا يزيد ونادى حينئذ قبيلتي عك والأشعريين فوقفوا جميعاً دونه يدفعون عنه حتى انفرج الفريقان بعضهما عن بعض وعاد معاوية إلى مجلسه مرة أخرى.

روى نصر بن مزاحم عن الشعبي ان أول فارس التقيا في اليوم السابع من صفر وكان من الأيام العظيمة في صفين ذو أهوال شديدة حجر الخير وحجر الشر، أما حجر الخير فهو حجر بن عدي صاحب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأما حجر الشر فابن عمه وكلاهما من قبيلة كنده وكان من أصحاب معاوية قاطعنا برمحيهما فخرج رجل من بني أسد يقال له خزيمة من عسكر معاوية فضرب حجر الخير ضربة برمحه فحمل أصحاب عليّ (عليه السلام) على خزيمة الأسدي فهرب حينذاك حجر الشر فالتحق بصف معاوية، ثم برز حجر الشر ثانية فبرزإليه الحكم بن أزهر من أهل العراق فقتل حجر الشر وعاد إلى أصحابه يقول: الحمد لله الذي قتل حجر الشر بالحكم بن أزهر(9).

وأمر الإمام عليّ (عليه السلام) عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي أن يحمل جيش أهل الشام، فحمل وشيكاً وهو يرتجز:

لم يبق غير الصبر والتوكل *** والترس والرمح وسيف مقصل

ثم التمشي في الرعيل الأول *** مشي الجمال في حياض المنهل

وكان عليه يومئذ درعان ويحمل سيفين اثنين، فاستمر يتقدم نحو فسطاط معاوية مع الذين بايعوه من جيشه على الموت حتى إذا رآه معاوية قادماً عليه أرسل حبيب بن مسلمة الفهري وهو في ميسرة أهل الشام ليسعف حماة فسطاطه وان يحمل بجميع من معه على عبد الله بن بديل بن ورقاء فأقبل حبيب بن مسلمة لاسعاف معاوية من الميسرة فاشتبك مع ميمنة العراق في مقتلة تبعث على الجزع، ولما كاد (عبد الله بن بديل) ان يبلغ الفسطاط جعل معاوية ينادي أصحابه قائلاً لهم في ندائه الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح فرضحه أصحاب معاوية بما حولهم من صخر وحجارة حتى قتلوه، فوقف عليه معاوية حينئذ وقال: هذا كبش القوم وربّ الكعبة اللّهم اظفرني بالأشتر النخعي والأشعث الكندي، والله ما مثل هذا إلاّ كما قال الشاعر:

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها *** وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

قال نصر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر عن أبي روق(10).

ان أهل الشام استعلوا على أهل العراق يومئذ فانكشف أهل العراق من أمام أهل الشام فاجفلوا اجفالاً شديداً فأمر أمير المؤمنين سهل بن حنيف فاستقدم من كان معه من جيش ليرفد الميمنة ويعضدها فاستقبلهم أهل الشام في خيل عظيمة فحملت عليهم وألحقتهم بالميمنة التي كانت متصلة بموقف عليّ (عليه السلام) في القلب، فلما انكشفوا انتهت الهزيمة إلى عليّ (عليه السلام) فانصرف يمشي نحو الميسرة فانكشفت مضر عن الميسرة، فعكف عليّ (عليه السلام)

ومعه بنوه نحو الميسرة ومعه ربيعة وحدها، وان النيل يمر بين عاتقه ومنكبيه وما من بنيه إلاّ من بقية بنفسه. وأبصر به أحمر ولى بني أمية وكان فارساً شجاعاً فقال عليّ (عليه السلام) وربّ الكعبة قتلني الله إن لم أقتله فاطلق كيسان مولى عليّ (عليه السلام) إليه فاختلفا ضربتين فقتله أحمر وخالط عليّاً (عليه السلام) ليضربه بالسيف إلاّ انه (عليه السلام) قبض على جيب درعه فجذبه عن فرسه فحمله على عاتقه، فو الله لكأني أنظر إلى رجلي (أحمر) تختلفان وتضطربان على عنق عليّ (عليه السلام) ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه وشد لنا أمير المؤمنين حسين ومحمّد فضرباه بأسيافهما حتى برد فكأني أنظر إلى عليّ قائماً وشبلاه يضربان الرجل حتى أتيا عليه. قال نصر بن مزاحم وحدثنا عمرو بن شمر عن فضيل بن خديج قال: لما انهزمت ميمنة أهل العراق يومئذ أقبل عليّ (عليه السلام) نحو الميسرة يركض يستثبت الناس(11) ويستوقفهم ويأمرهم بالرجوع فمر الأشتر فقال له يا مالك؟ قال لبيك يا أمير المؤمنين قال: ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه إلى الحياة التي لن تبقى لكم، فمضى الأشتر فاستقبل الناس

منهزمين فقال لهم كلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) وناداهم إليَّ أيها الناس .. أنا مالك بن الحارث يكررها مرة بعد أخرى فلم يلو أحد منهم عليه!! وظن ان الأشتر هو اسم أعرف في الناس من مالك بن الحارث فجعل ينادي ألا أيها الناس فأنا الأشتر فانقلب نحوه طائفة وذهبت عنه طائفة أخرى فقال (عضضتم بهن أبيكم).... ما أقبح والله ما فعلتم – اليوم أيها الناس غضوا الأبصار وعضوا على التواجد، واستقتلوا القوم بهامكم وشدوا عليهم شدة قوم موتورين بآبائهم وأبنائهم وأخوانهم حنقا على عدوهم وقد وطنوا على

الموت أنفسهم، لا يسبقوا بثأر.

إنّ هؤلاء القوم والله لن يقاتلوكم إلا ليطفئوا السنة ويحيوا البدعة ويدخلوكم في أمر قد أخرجكم الله منه بحسن البصيرة فطيبوا عباد الله نفساً بدمائكم دون دينكم فإنّ الفرار فيه سلب العز، والغلبة على الفيء، وذل الحياة والممات، وعار الدنيا والآخرة وسخط الله وأليم عقابه.

ثم صاح، أيها الناس اخلصوا إليى مذحجاً، فاجتمعت إليه مذحج فقال لهم: عضضتم بصم الجندل والله ما أرضيتم اليوم ربكم ولا نصحتم له في عدوه، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب وأصحاب الغارات وفتيان الصباح وفرسان الطراد وحتوف الأقران ومذحج الطعان، والذي نفس مالك بيده ما من هؤلاء.. وأشار بيده إلى أهل الشام رجل على مثل جناح البعوضة من دينه لله.. لله أنتم، ما أحسنتم اليوم القراع، احبسوا سواد وجهي يرجع فيه دمي، عليكم هذا السواد الأعظم. فإنّ الله لو قد فضّه بكم تبعه من بجانبيه كما يتبع السبيل مقدمه(12).

فقالوا وهم غاية من الحماسة: خذ بنا حيث ترى صالحاً للمسلمين فصمد بهم منسجماً، واستقبله وقتذاك أشباههم من فرسان همدان وكان عديدهم زهاء ثمانمائة مقاتل، وكانوا قد انهزموا اضطراراً منذ حين في آخر الناس الذين قد صبروا أجمل الصبر في ميمنة الإمام علي (ع) حتى قتل منهم مئة وثمانون رجلاً وأصيب منهم أحد عشر رئيساً كلما أصيب أو قتل منهم واحد تناول الراية فارس آخر في الميدان حتى بلغ عدد القتلى فقط من بني شريح الهمدانيين ستة تحت تلك الراية نفسها ثم تناولها عمير بن بشر وتلاه أخوه

الحارث بن بشر فقتلا أيضا تحت الراية أيضا ثم أراد أن يأخذها (أبو القلوص وهب بن كرب) فقال له أحد الناس من قومه: انصرف يرحمك الله بهذه الراية بعيداً ولا تقتل نفسك وتقتل من معك من المؤمنين. فانصرفوا إلى حيث الأشتر حينذاك واقفاً مع أصحابه وهم يقولون: ليت لنا عديداً من العرب يحالفوننا على أعدائنا هؤلاء

فأما أن نظفر أو نقتل على نصيرة كرماء، فسمعهم الأشتر وهم قادمون فقال لهم أنا أحالفكم على أن لا نرجع أبداً حتى نظفر أو نهلك معاً. فوقفوا معه بعدما عرفوه على هذه العزيمة الواعية ولما توافر معه أكثر من ألف مقاتل زحف بهم نحو ميمنة الإمام عليّ (عليه السلام) فثاب إليه أناس من ذوي الإخلاص المستنير وشرف الحياء.

فصار لا يتجه إلى نحو من أنحاء أهل الشام إلاّ يزيلهم فيزداد أصحابه عزماً واتكالاً على الله وقد ضاعف عزمهم النزيه وقتذاك حيث شاهدوا جثتي البطلين الهمامين (زياد بن النطر ويزيد بن قيس الأرحبي) محمولين على أكتاف الرجال المؤمنين إلى معسكر الإمام عليّ (عليه السلام) ثم اجتاز عليهم الحارث بن جهان الجعفي. فعرف الأشتر وأتبعهم بلقائه والتحق بأصحابه، فرفع الأشتر رايته المظفرة واستمر ينكى أشد نكاية بكل من يصمد له من أعدائه حتى استطاع أن يقترب مع أصحابه من موقف أمير المؤمنين إني قد رأيت جولتكم وانحيازكم من صفوفكم يحوزكم الجفاة الطغاة من أهل الشام وأنتم لهاميم العرب والسنام الأعظم لا يأتون على جموعكم وأنتم المؤمنون وعمار الليل بتلاوة القرآن وأهل دعوة الحق إذ ضل المخطئون فلولا اقبالكم بعد ادباركم وكركم بعد انحيازكم وجب عليكم ما وجب على المولي الأدبار يوم الزحف. وكنتم فيما أرى من الهالكين، ولقد هون عليّ وجدى وشفى بعض لاعج نفسي، إني رأيتكم

بأخرة حزتموهم كما حازوكم وأزلتموهم عن مصافهم كما أزالوكم تحشونهم بالسيوف يركب أولهم آخرهم كالإبل المطرودة الهيم فاصبروا الآن وقد نزلت عليكم.

وقال نصر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر قال حدثنا عبد السلام بن عبد الله بن جابر ان راية قبيلة بجيلة في صفين مع أهل العراق كانت مع أبي شداد قيس بن المكشوح بن هلال بن الحارث بن عمرو بن قبيلة (أحمس) قالت بجيلة: خذ رايتنا فقال غيري خير لكم مني قالوا: لا نريد غيرك قال: فوالله لئن أعطيتمونيها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب وكان على رأس معاوية رجل معه ترس مذهب يستره من الشمس فقالوا: أصنع ما شئت فأخذها وزحف بها مع بجيلة يضربون الناس حتى انتهى إلى صاحب الترس المذهب تحرسه خيول عظيمة من أصحاب معاوية وكان حامل الترس عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاقتتل الناس هناك اقتتالاً شديداً وشد أبو شداد بسيفه نحو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فتعرض له رومي من أصحاب معاوية فضرب قدم أبي شداد فقطعها فضرب أبو شداد ذلك الرومي فقتله فأحاطت به حينئذ جمهرة من ذوي السيوف والأسنة فقتل فأخذ الراية بعده عبد الله بن قلع الأحمسي وارتجز غاضباً:

لا يبعد الله أبا شداد *** حيث أجاب دعوة المنادي

وشد بالسيوف على الأعادي *** نعم الفتى كان لدى الطراد

وفي طعان الخيل والجلاد(13)

ثم قاتل حتى قتل فأخذها بعده أخوه عبد الرحمن بن قلع فقاتل حتى قتل ثم أخذها عفيف بن اياس الأحمسي فلم تزل بيده حتى تحاجز

ص 128

الناس في أصيل ذلك اليوم فإني سمية نعيم بن الحارث بن التغلبية إلى معاوية وكان من أصحابه فقال له ان هذا القتيل ابن عمي فهبه لي أدفنه، فقال ألا تدفنوهم فليسوا لذلك بأهل والله ما قدرنا على دفن عثمان بن عفان بينهم إلاّ سراً، فأجابه قائلاً والله لتأذن لي في دفنه أو لألحقن بهم ولأدعنك!! قال: ويحك.. ترى أشياخ العرب لا نواريهم وأنت تسألني في دفن ابن عمك أدفنه ان شئت أو دعه فمضى إلى جثمانه ابن عمه فدفنه، وهو لم يعد يصدق بكثير من مزاعم معاوية بعد ذلك اليوم، قال نصر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر، قال حدثنا أبو زهير العبسي عن النضر بن صالح: ان راية غطفان العراق كانت مع عياش بن شريك بن حارثة بن جندب بن زيد بن خلف بن رواحة، فخرج رجل من آل ذي الكلاع، فسأله المبارزة فبرز إليه قائد بن بكر العبسي فبارزه عليه الكلاعي فأرهطه صريعا(14) فقال: ابو سليم عياش بن شريك لقومه إني مبارز هذا الرجل فإن أصتت فراسكم الأسود بن حبيب بن جمانة بن قيس بن زهير فان أصيب فراسكم هرم بن شتير بن عمرو بن جندب.

فإن أصيب فراسكم عبد الله بن ضرار بن رواحه، ثم مشى نحو الكلاعي فلحقه هرم بن شتير فأخذ يظهره وقال: ليمسك رحم، لا تبرز إلى هذا الطوال. فقال: هبلتك الهبول وهل هو إلاّ الموت؟ قال: وهل الفرار إلاّ منه؟ قال: وهل منه بد، والله لأقتلنه أو ليلحقن بفائد بن بكير، فبرز له وبيده جحفة من جلود الإبل فدنا منه فإذا الحديد مفرغ على الكلاعي لا يبين من نحره إلاّ مثل خيط القطن فضربه الكلاعي على جحفته فقدها فأسرع عياش على الكلاعي فضربه على ذلك الموضع من نحره

ص 129

فقتله فأسرع ابن الكلاعي لينتقم لأبيه فانطلق إليه بكير بن وائل فأتى عليه قتيلاً.

واشتد القتال بين الفريقين وتفرقت الرايات بين الجموع وكانت راية ابن نهد حينذاك يحملها مسروق بن الهيثم بن سلمة النهدي فقتل فأخذها صخر بن سمي فارتث من الجراح فأخذها منه عليّ بن عمير فحارب بها حتى ارتث من كثرة الجراح فأخذها منه عبد الله بن عمرو بن كبشه فارتث كذلك فتناولها أبو مسبح بن عمرو فقتل

فأخذها عبد الله بن النزال فقتل ثم أخذها ابن أخيه عبد الرحمن بن زهير فقتل فأخذها مولاه (مخارق). فقتل فصارت أخيراً إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي فجرح جراحا اسقطته صريعاً ثم صرع إلى جانبه يزيد بن المغفل فقتل قاتله ثم صرع أبو زينب أبو عروة بجانباً فقتل قاتله أيضاً وقد قام على رأسه فجاء سفيان بن عوف وسأله؟ أقتلتم يزيد بن المغفل قال: قال أي والله انه لهذا الذي تراه بين قدمي قال: ومن أنت حياك الله قال: أنا عبد الرحمن بن مخنف فقال: الشريف الكريم حياك الله أفلا تدفعه إليَّ. فأنا عنه سفيان بن عوف المغفل فقال له عبد الرحمن ووارثه حقاً. قال نصر بن مزاحم: وخرج سويد بن قيس بن يزيد الأرحبي من عسكر معاوية يسأل المبارزة فخرج إليه من عسكر العراق قيس بن عمرو وأبو العمرطة بن عمير بن يزيد وهو ابن عم سويد بن قيس.. وكان كل منهما لا يعرف صاحبه فلما تعارفا وتوافقا وتساءلا ودعا كل واحد منهما صاحبه إلى حزبه فقال أبو العمرطة. أما أنا فوالله الذي لا إله إلاّ هو لئن استطعت لأضربن بسيفي هذه القبة البيضاء التي فيها معاوية ثم انصرف كل واحد منها إلى أصحابه(15).

ص 130

قال نصر بن مزاحم: ثم خرج رجل من عسكر معاوية وهو أزد شنوءة، يسأل المبارزة فخرج إليه رجل من أهل العراق فقتله الأزدي فخرج إليه الأشتر فما أسرع ما قتله فوراً فقاتل قائل من عسكر معاوية كان هذا ريحاً فصارت أعصارا(16).

قال نصر بن مزاحم : قال رجل من أصحاب عليّ (عليه السلام) أما والله لأحملن على معاوية حتى أقتله وأربح الناس في صفين فركب فرساً ثم ضربه حتى قام سنابكه ثم دفعه فلم ينهنهه شيء عن الوقوف فهرب معاوية ودخل خباء فنزل الرجل في أثره ودخل عليه فخرج معاوية هارباً من جانب الخباء الآخر، فخرج الرجل في أثره فاستصرخ معاوية بالناس فأحاطوا به وحالوا بينهما فقال معاوية ويحكم ان السيوف لم يؤذن لها في هذا المضيق ولولا ذلك لم يصل إليكم فعليكم بالحجارة فرضوه جميعاً حتى همد فعاد معاوية من جديد إلى مجلسه(17).

قال نصر بن مزاحم فحدثني عمرو بن شمر قال: ثم قام عليّ (عليه السلام) بين الصفين ونادى: يا معاوية يكررها مراراً فقال معاوية سلوه ما شأنه؟ قال: أحب أن يظهر لي فأكلمه فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه لم يلتفت إلى ابن العاص وقال لمعاوية ويحك علام يقتل الناس بيني وبينك ويضرب بعضهم بعضاً؟ ابرز إليَّ فأينا قتل صاحبه فالأمر له فالتفت معاوية إلى عمر بن العاص فقال: ما ترى يا أبا عبد الله؟ قال: قد

أنصفك الرجل واعم انك ان نكلت عنه لم يزل ذلك سبه عليك وعلى عقبك ما بقي على ظهر الأرض عربي، فقال معاوية: يا ابن العاص ليس مثلي يخدع عن نفسه، والله

ص 131

ما بارز ابن أبي طالب شجاع قط وسقى الأرض من دمه، ثم انصرف معاوية راجعاً ولم يجب حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه فلما رأى عليّ (عليه السلام) ذلك الجبن ضحك وعاد إلى موقفه.

وروى ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار قال: قال أبو الأغر التميمي بينما أنا واقف بصفين مر بي العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب مكفرا تام التسلح وعيناه تبصران من تحت المغفر كأنهما عينا أرقم وبيده صفيحة بيانية يقلبها وهو على فرس له صعب وبينما هو يبغثه ويمارس ضربه بهدوء هتف به هاتف من أهل الشام يعرف (بمرار بن أدهم) يا عباس هلم إلى البراز قال العباس: فالنزول اذن.. فإنه ايأس من القفول فنزل الشامي وهو يقول:

ان تركبوا فركوب الخيل عادتنا *** أو تنزلون فانا معشر نزل

وثنى العباس رجله نازلاً ثم عصب فضلات درعه في حجزته ودفع فرسه(18) إلى غلام له أسود يقال له (أسلم) ثم دلف كل واحد منهما إلى صاحبه فذكرت قول أبي ذؤيب:

فتنازلا وتواقفت خيلاهما *** وكلاهما بطل اللقاء مخدع

وكفت الناس أعنة خيولهم ينظرون ماذا يكون من الرجلين فتكافحا بسيفيهما ملياً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لامته، إلى ان لحظ العباس وهنا في درع الشامي فأهوى إليه بيده فهتكه إلى ثندوته ثم عاد لمجاولته، وقد أصحر له قليلاً إلى الصحراء فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره فخر الشامي لوجهه فكبر الناس المشاهدون من بعيد تكبيرة

ص 132

ارتجت لها الأرض من تحتهم، وسما العباس في أنظار الناس، وإذ قائل يقول:

قاتلوهم يعذبهم الله بأيدكم ويخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء.

فالتفت العباس فإذا أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال: ياعباس ألم أنهك وعبد الله بن عباس أن تخلا بمراكزكما ان تباشرا حربا؟ قال: ان ذلك كان.. قال: فما عدا مما بدا؟ قال: يا أمير المؤمنين أفأدعى إلى البراز

فلا أجيب؟ قال: نعم طاعة إمامك أولى من اجابة عدوك، ثم تغيظ واستطار، حتى قلت: الساعى الساعة ثم سكن وتطامن، ورفع يديه مبتهلاً فقال: اللهم اشكر للعباس مقامه واغفر له وانك لغفور رحيم.

قال: ولهف معاوية حينذاك على (عرار بن أدهم) وقال متى ينتطح فحل لمثله أيطل دمه؟ لا ها الله إذا. إلاّ رجل بشرى نفسه لله، يطلب بدم عرار فانتدب له رجلان من (لخم) فقال لهما: اذهبا فأيكما قتل العباس برازا فله ما يشاء، فأتياه فدعوه للبراز فقال ان لي سيداً أريد أن أؤامره فأتى عليّاً (عليه السلام) فأخبره الخبر فقال عليّ (عليه السلام) : والله لود معاوية انه ما بقى من بني هاشم نافح ضرمة إلاّ طعن في بطنه اطفاء لنور الله ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره المشركون، ثم قال: يا عباس ناقلني سلاحك بسلاحي، فناقله ووثب على فرس العباس وقصد اللخميين، فما شكا انه هو، فقالا: اذن لك صاحبك فخرج ان يقول : نعم فقال: اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير فبرز إليه أحدهما فكأنما اختطفه اختطافاً ثم برز له الآخر فألحقه قتيلاً بالأول ثم أقبل يقول (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم).

ثم قال ياعباس خذ سلاحك وهات سلاحي، فإن عاد لك أحد فعد إليَّ قال: فنقل الخبر إلى معاوية فقال: قبح الله اللجاج انه لقعود ما ركبته قط إلا ختلت، فقال عمرو بن العاص: المخذول والله اللخميان لا أنت، فقال: اسكت أيها الرجل وليست هذه من ساعتك وإن لم يكن فرحم الله اللخميين وماأره يفعل قال: فإن ذلك والله أخسر لصفتك وأضيق لحجزتك قال: قد علمت ذاك، ولولا مصر لركبت المنجاة منها. قال: هي أعمتك يا عمرو).

قال نصر بن مزاحم: وأقبل ذو الكلاع في حمير ومن لف لفها، ومعهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب في أربعة آلاف من قراء أهل الشاع وذو الكلاع في حمير في الميمنة وعبيد الله بن عمر في الميسرة فحملا جميعاً على ربيعة حملة شديدة فتضعضت رايات ربيعة ثم ان أهل الشام انصرفوا فلم يمكثوا إلاّ قليلاً من الوقت حتى كروا ثانية وعبيد الله بن عمر في أوائلهم يصيح: يا أهل الشام هذا الحي من العراق هم قتلة عثمان بن عفان وهم أنصار عليّ بن أبي طالب ولئن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم، وهلك عليّ وأهل العراق فشدوا على الناس شدة عظيمة فثبت لهم ربيعة وصبرت صبراً حسناً إلاّ قليلاً من الضعفاء.

فأمّا أهل الرايات وذووا البصائر منهم والحفاظ فثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً وأما خالد بن المعمر فإنه لما رأى أهل الرايات ثابتين صابرين رجع إليهم وصاح بمن انهزم وأمرهم بالرجوع فكان من يتهمه من قومه يقول: انه فر

فلما رآنا قد ثبتنا رجع إلينا وقال هو: لما رأيت رجالاً منا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردهم إلى الحرب فجاء بأمر مشتبه ولا ريب عند علماء السيرة ان خالد بن المعمر كان له باطن سوء وله

اتصال خفي مع معاوية وانه انهزم هذا اليوم ليكسر الميسرة على عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ذكر ذلك الكلبي والواقدي وغيرهما ويدل على ذلك من باطنه انه لما استظهرت ربيعة على معاوية وعلى صفوف أهل الشام في اليوم الثاني من هذا أرسل معاوية إلى خالد بن المعمر ان كف عني ولك أمارة خراسان ما بقيت فكف عنه فرجع بربيعة وقد شارفوا بأخذه من مضربه.

قال نصر بن مزاحم(19): فلما رجع خالد بن المعمر واستوت صفوف ربيعة كما كانت خطبهم فقال: يا معشر ربيعة، إن الله تعالى أتى بكل رجل منكم من منبته ومسقط رأسه فجمعكم في هذا المكان جمعاً لم يجتمعوا مثله قط منذ أفرشكم الله الأرض وانكم ان تمسكوا أيديكم تنكلوا عن عدوكم وتحولوا عن مصافكم ... لا يرضى الله فعلكم ولا تعدموا معيرا يقول: فضحت ربيعة الذمار وخافوا وجبنوا عن القتال وأتيت من قبلهم العرب فإياكم أن يتشاءم بكم اليوم المسلمون، وانكم ان تمضوا مقدمين، وتصبروا محتسبين فإن الاقدام منكم عادة والصبر منكم سجية فاصبروا ونيتكم صادقة تؤجروا فإن ثواب من نوى ما عند شرف الدنيا وكرامة الآخرة والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً فقام إليه رجل من ربيعة وقال له: لقد ضاع والله أمر ربيعة حين جعلت أمرها إليك تأمرنا أن لا نحول ولا نزول حتى نقتل أنفسنا ونسفك دماءنا هدراً.

فقام إليه رجال من قومه فتناوله بقسيهم ولكزوه وقالوا لخالد بن المعمر: اخرجوا هذا من بينكم فإن هذا ان بقي فيكم ضركم وإن خرج منكم لم ينقصكم عددا هذا الذي لا ينقص العدد ولا يملأ

البلد، ترحكم الله من خطيب قوم لقد جنبك الخير قبح الله ما جئت به.

واشتد القتال يومئذ بين أنصار عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وأنصار معاوية بن أبي سفيان وفيهم (عبيد الله بن عمر بن الخطاب) فكثرت القتلى كثرة عامة فخرج نحو من خمسمائة مقاتل من أصحاب عليّ بن أبي طالب وهم غاصون في الحديد لا يرى منهم إلاّ الحدق ، وخرج إليهم من أهل الشام نحوهم في العدة والعدد فاقتتلوا بين الصفين والناس وقوف تحت راياتهم. ثم اسفر القتال بينهم عن البوار حيث لم يرجع من هؤلاء ولا هؤلاء أحد فقد قتلوا جميعاً بين الصفين المتعاديين، فتألم كثيراً من رجال معاوية الأذكياء لفقدان هؤلاء الأبطال الذين قتلوا من جراء مزاعم معاوية بانه يطالب معهم بدم عثمان بن عفان على حين ان ذلك لم يكن يحدث منذ

سنين مضت لمقتل الخليفة عمر بن الخطاب مع وجود أعظم الصحابة وأكرمهم حوله وزيادة على هذا فانهم يرون بأعينهم ان معاوية يغري أقواماً بأموال بيت المال الإسلامي كيفما يشاء لتنفيذ أهدافه المخصوصة، وكذلك يمني غير أولئك بأمنية منحهم سلطة الحكم على مصر وخراسان أو غيرهما إذا انتهت الحرب في صفين بانتصارهم على أنصار عليّ بن أبي طالب وعليه خاصة ولكنهم وجدوا أنفسهم قد انغمسوا في تيارات الحرب في صفين ولا يملكون مخرجاً أميناً منها.

أما عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقد وجدوه لا يحوز ناراً إلى قرصته ولا يسعى إلى منال سلطة زمنية فيشمخ بها في الأمبراطورية الإسلامية وان له خصائص دينية مميزة واعتبارات اجتماعية وحربية وعلمية وسياسية. وصلة رحم برسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) لم توجد في معاوية بن أبي سفيان. وان عليّ بن أبي طالب ان تنازل لمعاوية عن الخلافة وذلك أمر محال جداً يكن تنازله سابقة

هدامة للأمبراطورية الإسلامية.

قال نصر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن تميم قال منادي أهل الشام يومذاك : الا ان معنا الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر، تنشيطاً وتثبيتاً لقلوب أهل الشام فنادى منادي أهل العراق بل هو الخبيث بن الطيب. ونادى منادي أهل العراق ألا ان معنا الطيب بن الطيب محمّد بن أبي بكر الصديق فنادى أهل الشام بل هو الخبيث ابن الطيب(20).

وقال نصر بن مزاحم: حدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن تميم ثم ذهب هذا اليوم بما فيه فأصبحوا في اليوم التاسع من صفر وقد خطب معاوية أهل الشام وحرضهم فقال انه قد نزل بكم الأمر ما ترون وحضركم ما حضركم فإذا نهدتم إليهم إن شاء الله فقدموا الدراع وأخروا الحاسر وصفوا الخيل وأجنبوها وكونوا كقص الشارب وأعيرونا جماجمكم ساعة فإنما هو ظالم أو مظلوم وقد بلغ الحق مقطعه انكم يا أهل الشام ستلاقون غداً أهل العراق فكونوا على احدى ثلاث خصال: أما أن تكونوا قوماً طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا في بيضتكم. وأما أن تكونوا قوماً يطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم وأما ان تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل أسأل الله لنا ولكم النصر، وان يفتح بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين فقام ذو الكلاع فقال يا معاوية: انا نحن الصبر الكرام . لا ننثني عند الخصام بنو الملوك العظام، ذوى النهى والأحلام لا يقربون الآثام

قال معاوية: صدقت(21).

قال نصر بن مزاحم: وكانت التعبئة في هذا اليوم كالتعبئة في اليوم الذي قبله وحمل عبيد الله بن عمر بن الخطاب في قراء أهل الشام ومعه ذو الكلاع في حمير على قبيلة ربيعة وهي في ميسرة عليّ (عليه السلام) فقاتلوا قتالاً شديداً فجاء زياد بن حصفة إلى قبيلة عبد القيس فقال لهم: لا بكر بن وائل بعد اليوم ان ذا الكلاع وعبيد الله بن عمر أبادا ربيعة فانهضوا لهم وإلاّ هلكوا فركبت عبد القيس غضاباً وجاءت كأنها غمامة سوداء فشدت أزر الميسرة، فتعاظم القتال فقتل ذو الكلاع الحميري قتله رجل من بكر بن وائل اسمه (خندف) فتضعضعت أركان حمير ولكنها ثبتت بعد مقتل ذو الكلاع تحارب مع عبيد الله بن عمر وتفتقت عقيلة (عبيد الله) عن محاولة واهية فأرسل إلى الحسن بن عليّ (عليه السلام) ان لي إليك حاجة فألقني فلقية بالرغم من كونه في المعركة فقال له عبيد الله: إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً وقد شننه الناس فهل لك في خلعه فإن تتولى أنت هذا الأمر؟ فقال كلا والله لا يكون ذلك قط ثم قال يا ابن الخطاب والله لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك، أما ان الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلوق (ترى نساء أهل الشام موقفك وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلا

قال نصر بن مزاحم مستأنفاً قوله:

فوالله ما كان إلاّ بياض ذلك اليوم حتى قتل عبيد الله بن عمر وهو في كتيبة رقطاء تدعى الخضرية تشتمل على أربعة آلاف يرتدون ثياباً خضراً فمر الحسن (عليه السلام) فإذا رجل متوسد رجلا قتيلاً قد ركز رمحه في عينيه وربط فرسه برجله فقال الحسن (عليه السلام) لمن حوله: أنظروا من هذا؟ فإذا رجل من

همدان متوسد عبيد الله بن عمر بن الخطاب مقتولا تحته وانه هو قاتله منذ أول الليل.

وقال الصلتان العبدي: ان قاتل عبيد الله بن عمر حريث بن جابر الحنفي كما كان قاتل ذي الكلاع الحميري. (خندف) بن بكر البكري(22) .

قال نصر بن مزاحم ان معاوية بن أبي سفيان قال لمن حوله من أصحابه حين قتل ذو الكلاع. لأنا أشد فرحاً بقتل ذي الكلاع حتى يفتح مصر لو فتحها، لأن ذا الكلاع كان يحجر على معاوية في أشياء كان يأمر بها ولا يملك جرأة على مخالفته.

قال نصر بن مزاحم: فلما قتل ذو الكلاع اشتدت الحرب وتساندت عك ولخم وجذام والأشعريين: يا مذحج من للنساء غداً إذا أفناكم الردى، الله، الله في الحرمات.. أما تذكرون نساءكم والبنات؟ أما تذكرون فارس والروم، ولقد أذن الله فيكم بالهلاك.

والقوم يتقاتلون وينحر بعضهم بعضاً ويتكادمون بالأفواه(23).

قال نصر بن مزاحم: وقال معاوية لعمر بن العاص، أما ترى يا أبا عبد الله ما قد صرنا إليه؟ كيف ترى أهل العراق غداً صانعين.. انا ليعرض خطر عظيم، فقال له: ان أصبحت غداً ربيعة وهم متعطفون حول عليّ (عليه السلام) تعطف الأبل حول فحلها لقيت منهم جلاداً صادقاً وبأساً شديداً، وكانت التي لا يتعزى لها، فقال معاوية: أيجوز انك تخوفنا يا أبا عبد الله؟ قال: انك سألتني فأجبتك فلما أصبحوا في اليوم العاشر أصبحوا وربيعة محدقة بعليّ (عليه السلام) احداق بياض العين لسوادها، ولما أصبح عليّ (عليه السلام) هذا اليوم جاء حتى وقف بين رايات ربيعة فقال عتاب بن لقيط البكري من بني قيس

ثعلبة، يا معشر ربيعة حاموا عن عليّ (عليه السلام) منذ اليوم فإن أصيب فيكم افتضحتم، ألا ترونه قائماً تحت راياتكم؟ وقال لهم (شفيق بن ثور) يا معشر ربيعة ليس لكم عذر عند العرب، ان وصل إلى عليّ (عليه السلام) وفيكم رجل حي فامنعوه اليوم واصدقوا عدوكم اللقاء فإنه حمد الحياة تكسبونه. فتعاهدت ربيعة وتحالفت بالأيمان العظيمة منها سبعة آلاف على ألا ينظر رجل منهم خلفه حتى يردوا سرادق معاوية. فقاتلوا ذلك اليوم قتالاً شديداً لم يكن قبله مثله وأقبلوا على سرادق معاوية فلما نظر إليهم قد أقبلوا قال:

إذا قلت قد ولت ربيعة أقبلت *** كتائب منها كالجبال تجالد

ثم قال لعمرو: يا عمرو ما ترى؟ قال: أرى ألا نحنث أخوالي اليوم فقام معاوية وحلى لهم سرادقه ورحله وخرج هارباً عنه لائذاً ببعض مضارب العسكر في أخريات الناس فدخله فانتهبت ربيعة سرادقه ورحله، وبعث إلى خالد بن المعمر انك قد ظفرت، ولك امرة خراسان ان لم تتم، فقطع خالد القتال ولم يتمه وقال لربيعة قد كبرت ايمانكم فحسبكم فلما كان عام الجماعة وبايع الناس معاوية أمره معاوية على خراسان وبعثه إليها فمات في الطريق قبل أن يبلغها.

قال نصر بن مزاحم في حديث عمر بن سعد : ان عليّاً (عليه السلام) صلى في ربيعة هذا اليوم ثم زحف بهم، فلما أبصروه قد خرج استقبلوه بزحوفهم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم ان خيل أهل الشام حملت على خيل أهل العراق فاقتطعوا من أصحاب عليّ (عليه السلام) ألف رجل أو أكثر فأحاطوا بهم، وحالوا بينهم وبين أصحابهم فلم

يعودوا يرونهم، فنادى عليّ (عليه السلام) يومئذ ألا رجل يشتري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته؟ فأتاه رجل من قبيلة (جعف) يقال له عبد العزيز بن الحارث على فرس أدهم كأنه غراب مقنع بالحديد،

ص 140

لا يرى منه إلاّ عيناه فقال: يا أمير المؤمنين مرني بأمرك، فو الله لا تأمرني بشيء إلا صنعته؟ فقال (عليه السلام):

سمحت بأمر لا يطاق حفيظه *** وصدقا واخوان الصفاء قليل

جزاك اله الناس خير فإنه *** لعمرك فضل ما هناك جزيل

يا أبا الحارث قد شد الله ركنك، احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك فتقول لهم: ان أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم: هللوا وكبروا من ناصيتكم ونهلل نحن ونكبر من ها هنا واحملوا من جانبكم ونحمل نحن من جانبنا على أهل الشام.

فضرب الجعفي فرسه حتى إذا أقامه على أطراف سنابكه حمل على أهل الشام المحيطين بأصحاب عليّ (عليه السلام) فطاعنهم ساعة وقاتلهم فأفرجوا له حتى خلص إلى أصحابه فلما رأوه استبشروا به وفرحوا وقالوا: ما فعل أمير المؤمنين؟ قال: صالح ويقرئكم السلام ويقول لكم: هللوا وكبروا واحملوا حملة شديدة من جانبكم ونهلل نحن ونكبر من جانبنا ففعلوا ما أمرهم به وحمل على أهل الشام وحملوا هم من وسط أهل الشام فانفرج القوم عنهم وخرجوا ما أصيب منهم رجل واحد، ولقد قتل من فرسان الشام يومئذ زهاء سبعمائة انسان بين الحملتين فقال عليّ (عليه السلام) من أعظم الناس اليوم غناء؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين فقال : كلا ولكنه الجعفي هذا(24).

في خلال مارك صفين استغل معاوية كل مكيدة تطرأ على خاطره لتقوية جانبه الحربي في الميدان ولترميم شأنه الرئاسي في أنظار جيشه بالحرب ضد

ص 141

أمير المؤمنين. ولقد طالما دس يده دساً خيانياً في بيت أموال المسلمين واستحل منه أموالاً يبددها كيفما شاء على ذوي المطامع من أتباعه وزعماء جيشه ابقاء على ولائهم له، كما وقد حاول أن يستدرج أبعاضاً من رجال عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بمواعيد رجراجة مغرية بأن يجعلهم أمراء في الأقاليم الإسلامية إذا انتصر في حرب صفين.

وفي ذلك الزمن نفسه كان يتباكى عند سنوح وقت التباكي على مقتل عثمان بن عفان ليخدع بذلك جميع المغفلين من عسكره بأنه يروم الانتقام معهم لمقتل عثمان بن عفان خليفة المسلمين في المدينة.

ولكن مكائده هذه تلوثت بالاخفاق في حين بقى عمرو بن العاص وجماعة من نظرائه لا يثين يؤازرون معاوية متورطين في الحرب لا يملكون لأنفسهم عذراً شريفاً يبررون به خروجهم منها نادمين مستغفرين.

وكذلك من الأحداث المعيبة التي عرضت لمعاوية في صفين هزائمه الشخصية بمشهد أنصاره وأعدائه عندما كان يهاجمه مهاجمون من أنصار عليّ (عليه السلام) فيهرب منهم ركضاً فيختبىء عنهم بين المخيمات أو خلف جنوده ولا يعود إلى مجلسه أو موقفه من جديد حتى يخبروه بزوال المحاصر عنه حينذاك.

ومن أعجب الأحداث التي وقعت له مراراً في صفين جبنه الواضح عن مبارزة عليّ (عليه السلام) كلما دعاه إلى المبارزة ليقتل أحدهما الآخر فيصفو الأمر للآخر وحده من غير أن يتعرض هنالك المسلمون للقتل بينهما في كل يوم فيمتنع معاوية عن اجابة دعوة الإمام عليّ (عليه السلام) بحجة انه يريد أن يكون في مستقبل الأيام رئيساً مرموقاً على الامبراطورية الإسلامية.

قال نصر بن مزاحم : حدثنا عمرو بن شمر عن جابر عن الشعبي عن صعصعة بن صوحان قال: برز في بعض أيام صفين رجل من حمير من آل ذي يزن

اسمه كريب بن الصباح ليس في الشام يومئذ رجل أشهر بالباس والنجدة منه، فنادى من يبارز؟ فخرج إليه المرتفع بن الوضاح الزبيدي فقتله الحميري، ثم نادى من يبارز؟ فخرج إليه الحارث بن الحلاج فقتله، ثم نادى: من يبارز؟ فخرج إليه عابد بن مسروق الهمداني فقتله، ثم رمى بأجسادهم بعضها فوق بعض، وقام عليها بغياً واعتداء ونادى من يبارز؟ فخرج إليه عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وناداه يا كريب ويحك إني أحذرك الله وبأسه ونقمته وأدعوك إلى سنّة الله وسنّة رسوله ويحك لا يدخلنك معاوية النار فكان جوابه له ان قال ما أكثر ما سمعت منك هذه المقالة ولا حاجة إلينا فيها أقدم إذا شئت من يشتري سيفي وهذا أثره.

فقال عليّ (عليه السلام) : لا حول ولا قوة إلاّ بالله، ثم مشى إليه فلم يمهله ان ضربه ضربة خر منها قتيلا يشحط في دمه. ثم نادى؟ من يبرز؟ فبرز إليه المطاع ابن مطلب العنسي فقتله ثم نادى من يبرز؟ فلم يبرز إليه أحد. فنادى يا معشر المسلمين الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله، واعلموا ان الله مع المتقين ويحك يا معاوية هلم إليَّ فبارزني ولا يقتلن

الناس فيما بيننا فقال عمرو بن العاص اغتنمه منتهزا قد قتل ثلاثة من أبطال العرب وإني أطمع أن يظفرك الله به. فقال معاوية والله لن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدي، اذهب إليك عني فليس مثلي يخدع(25).

قال نصر بن مزاحم: خطب عبد الله بن العباس أهل العراق في صفين فقال: الحمد لله ربّ العالمين الذي دحا تحتنا سبعاً. وسمكن فوقنا سبعا

وخلق فيما بينهن خلقا، وأنزل لنا منهن رزقا ثم جعل كل شيء قدرا يبلى ويفنى غير وجهه الحي القيوم الذي يحيا ويبقى، ان الله تعالى بعث أنبياءه رسلاً فجعلهم حججا على عباده عذرا او نذرا، لا يطاع إلاّ بعلمه واذنه بمن بالطاعة على من يشاء من عباده ثم يثبت عليها، وبعض يعلم منه فيعفو ويغفر بحلمه. لا يقدر قدره، ولا يبلغ شنيء مكانه، أحصى كل شيء عددا، وأما بكل شيء علماً، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله امام الهدى والنبي المصطفى وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة وانتشر من أمرها ان معاوية بن أبي سفيان وحد من طغام الناس أعواناً على عليّ (عليه السلام) ابن عم رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وصهره. وأول ذكر صلى معه بدري قد شهد مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) كل مشاهده التي فيها الفضل ومعاوية مشرك كان يعبد الأصنام والذي ملك الملك وحده وبان به، وكان أهل لقد قاتل عليّ بن أبي طالب مع رسول الله وهو يقول: صدق الله ورسوله ومعاوية يقول كذب الله ورسوله فعليكم بتقوى الله، والجد والحزم والصبر والله انا لنعلم انكم لعلى حق وان القوم لعلى باطل فلا يكونن أولى بالجد على باطلهم منكم في حقكم وأنا لنعلم ان الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم الله أعنا ولا تخذلنا وانصرنا على عدونا ولا تحل عنا وافتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين(26).

وروى ابن ديزبل في كتاب صفين قال: كان عمرو بن العاص في صفين إذا مر عليه رجل من أصحاب عليّ (عليه السلام) فسأل عنه فأخبروه به قال: يرى عليّ ومعاوية أنهما بريئان من دم هذا.

وقال ابن ديزبل: وروى ابن وهب عن مالك بن أنس، قال: جلس

عمرو بن العاص بصفين في رواق، وكان أهل العراق يدفنون قتلاهم وأهل الشام يجعلون قتلاهم في العباء والاكيسة يحملونهم فيها إلى مدافنهم فكلما مر عليه برجل قال من هذا؟ فيقال: فلان ، فقال عمرو: كم من رجل أحسن في الله، عظيم الحال لم ينج من قتله عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

قلت ليت شعري لم برأ نفسه وكان رأساً في الفتنة بل لولاه لم تكن ولكن الله تعالى أنطقه بهذا الكلام وأشباهه ليظهر به بذلك شكه وإن لم يكن على بصيرة من أمره(27).

قال: نصر بن مزاحم وحدثنا يحيى بن يعلى عن الأصبغ بن نباتة قال جاء رجل إلى عليّ (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء القوم الذين نقاتلهم فإنما الدعوة واحدة، والرسول واحد، والصلاة واحدة، والحج واحد فماذا نسميهم قال سمهم بما سماهم الله في كتابه، قال: ما كل ما في الكتاب أعلمه، قال: أما سمعت الله تعالى يقول: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض... إلى قوله ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر. فلما وقع الاختلاف كنا نحن أولى بالله وبالكتاب وبالنبي وبالحق فنحن الذين آمنوا وهم الذين كفروا وشاء الله قتالهم فقاتلوهم بمشيئته وإرادته(28).

ولما كان ما قبل يوم أو يومين من ليلة (الهرير) خرج رجل من أهل الشام ونادى فيما بين الجيشين المتقابلين يا أبا الحسن يا عليّ بن أبي طالب ابرز لي ملياً فبرز إليه ودنا منه غاية الدنو فقال له يا عليّ ان لك قدما في

الإسلام وهجرة آنفة فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن الدماء وتأخير هذه الحرب حتى ترى رأيك فقال له عليّ (عليه السلام): وما ذاك قال ترجع إلى عراقك وتخلي بينك وبين أهل العراق ونرجع إلى شامنا فنخلي بيننا وبين أهل الشام؟ فقال له عليّ (عليه السلام) : لقد عرفت انك إنما عرضت هذه نصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل على محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ان الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه ان يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة الأغلال في جهنم فرجع الشامي وهو يسترجع بائساً فيبدو من سياق هذه المواجهة الغامضة ان معاوية بن أبي سفيان وأنداده كعمرو بن العاص وبسر بن أرطاة ومروان بن الحكم قد وجدوا معارك صفين قد اشتدت يوماً بعد يوم حتى أوشكت ان تثير اليأس والجزع في نفوس الكثيرين من أهل الشام فأجمعوا الرأي على اختيار نية الإمام (عليه السلام) ومدى هدفه في صفين وأرادوا أن يمكروا به ويستطلعوا رأيه كذلك فإن جنح إلى السلم أذاعوا عنه بأنه تهافت أمامهم ضعفاً، وان استمر على القتال أسندوا إليه صفة العدوان عليهم وزيادة على ذلك فإنهم يرومون اكتساب موافقته على اكسابهم قسماً من بلاد الإسلام كما لو كانت بلاد الإسلام عرضة للمساومة والاستغلال ولتكون سابقة نافذة تسيغ نظائرها بعد أحيان من الدهر.

وجدير بنا هذا الحد الموجز من تاريخ معارك صفين أن نذكر بأن أمير المؤمنين (عليه السلام) غلس بالناس في صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول سنة 37 للهجرة ثم استعد للزحف بجيشه على أهل الشام فخرج مالك الأشتر بكامل لامته الحربية وشرع ينظم مصاف الجيش الإسلامي تحت رايات

ص 146

معاشرهم وقبائلهم ثم أنشأ يخطب فيهم فقال: الحمد لله الذي جعل فيكم ابن عم نبيكم أقدمهم هجرة وأولهم إسلاماً سيف من سيوف الله صبه على أعدائه فانظروا إليَّ أيهاالناس إذا حمي الوطيس وثار القتام وتكسرت المرآن أي الرماح وجالت الخيل بالأبطال فلا أسمع إلاّ غمغمة أو همهمة ثم حمل على أهل الشام وكسر فيهم رمحه ثم عاد وأسفر عن وجهه فإذا هو مالك الأشتر فأمرهم بالهجوم بعد أمر الإمام عليّ (عليه السلام) بالهجوم على جيش الشام فترامو بالنبال حتى فنيت ثم تطاعنوا بالرماح حتى تقصفت ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد فلم يسمع السامع إلاّ غمغمة القوم وتكادم الأفواه وصليل السيوف في الهام ووقع الحديد بعضه على بعض وهو أشد هؤلاء في صدور الرجال من الصواعق في الحرب وأنفق في ذلك اليوم كسوف الشمس فضاعفت من رهبة المحاربين ووجهت أبصارهم نحو السماء ومما ظهرت فيها من عظمة الله وقدرته(29).

واستأنفوا القتال على هذا النحو من صلاة الغداة إلى نصف الليل وتعاقبت مواقيت أربع صلوات ولم يصلوا لله صلاة إلاّ تكبيراً لاشتداد اشتغالهم بالحرب ومخاطر الحرب حتى ارتفاع الضحى من اليوم التالي وافترقوا جيشاً عن جيش وتركوا وراءهم زهاء سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم وتلك الليلة وهي ليلة الهرير.

والأشتر في ميمنة عسكر الإمام (عليه السلام) وابن عباس في الميسرة وعلي بن أبي طالب في القلب وجميعهم لا ينسون ذكر الله تعالى.

لقد كان الأشتر يومئذ أعجوبة في البطولة النادرة بعد أمير المؤمنين عند

ص 147

أصحابه وعند أهل الشام، فلقد أسلف أكثر من يوم وليلة، على التعاقب وباستمرار يهاجم أعداءه بلا هوادة وهو لا يشعر كلا بغشاوة ولا ضعفا يخامر اخلاصه للدين وعندما أوشك على الاقتراب من جنود أعدائه الذي ربطوا سيقانهم بالأقمشة أن لا يتزحزحوا والتفت إلى جموع أنصاره وقال لهم : شدوا فداكم عمي وخالي شدة ترضون بها الله وتعزون بها الإسلام ثم أمر حامل رايته حيان بن هوذة النخعي أن يتقدم بها وهنالك وقعت أعظم واقعة بجيش معاوية وجعل الأشتر يصيح أمام جيشه (تقدموا فداكم عمي وخالي) ازحفوا قيد رمحي هذا فإذا فعلوا

وتكسرت الرماح وتقطعت السيوف وشاهت مرامي السهام واشتد وقع القضبان الحديدية بعضها على بعض أو على الرؤوس وتهاوت الخيول المقتولة أو الجريحة بين جثث القتلى واضطربت قلوب الناس من مخافة الله تعالى بعدما بدأت الشمس تخرج من كسوفها وبينما كانت شدائد المعركة تتعاظم خرج رجل من أهل الشام ينادي بين الصفين يا أبا الحسن يا عليّ ابرز لي فخرج إليه أبو الحسن ليرى ماذا يريد الرجل ولما اقترب منه واختلفت أعناق دابتيهما قال الرجل أبا عليّ ان لك قدما في الإسلام والهجرة فهل لك في أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتى ترى من رأيك؟ فقال له أبو الحسن (عليه السلام) وما ذاك؟ قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين أهل العراق وترجع إلى شامنا فنخلي بيننا وبين أهل الشام فقال له عليّ (عليه السلام) لقد عرفت انك إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة ولقد أهمني هذا الأمر وأسهرني وضرمت أنفه وعينيه فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) ان الله تبارك وتعالى شأنه لم يرض من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر

فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة الأغلال في جهنم فرجع الشامي وهو يسترجع، من المحتمل جداً ان معاوية بن أبي سفيان كان حينذاك هو مرسل ذلك الرجل عمداً إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) بتوجيه تشاوري مع عمرو بن العاص ابتغاء مغنم ينشدانه سراً، أو كسباً لنهزة كلامية قد تصدر من عليّ (عليه السلام) يتمسكون بها ويذيعون صفوتها المنافعة إياهم مع زيادة في النميق بين معاشر الناس في تلك الظروف الحربية الصعبة هذه من الجهة.

وأما من جهة أخرى فان الإمام (عليه السلام) كان رجلاً واقعياً حقا ولو شاء لأخبر ذلك الرجل – ان لم يكن خبيرا من قبل بأنه أي الإمام عليّ (عليه السلام) قد عرض مثل هذا الاقتراح أكثر من مرة على معاوية فرفضه ارتجالا ليظهر نفسه امام قومه بأنه متحقق ومتأكد من عاقبة انتصاره في الحرب، وانه لا يسعه إلاّ أن ينطق من دست القوة والانتصار مع عليّ بن أبي طالب ولكنه أحسن بعدئذ عند أواخر مساعيه في موقع التهافت والحيرة يلتفت يمينا ويساراً عن أن يجد منقذا يتيح له نجاحاً بأي شكل من الأشكال كارساله هذا الرجل المذكور آنفاً إلى عليّ بن أبي طالب (عليه السلام).

واستمر القتال مبيدا مذهلاً لرجال كلا الفريقين المتقابلين، إلاّ ان الابادة في عساكر معاوية كانت أشد وأنكى، فلقد كان (ابن عباس) وقتذاك في مسرة الإمام عليّ (عليه السلام) وكان مالك الأشتر في الميمنة وهو لا ينفك

يدور أيضاً بين صفوف أصحابه فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء ان يحترزوا من شرور التي تليها بينما كان أمير المؤمنين (عليه السلام) في القلب يتابع اتجاهات راية الأشتر ويمده بالرجال حتى أصبح الصباح والمعركة الطاحنة وراء رايته فتصارخت المشيخة من أهل الشام.

يا معشر العرب الله، الله في الحرمات من النساء والبنات ، فصاح في

وجوههم رجل من العراق، وأين كانت صرخاتكم هذه قبل اليوم؟

وما كاد ينبلج الصباح حتى بلغ القتال أوجا لم يبلغه من قبل، فصاح الأشتر بين كتائب أنصاره : ألا من يشري نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله؟ فلم يزل الرجل من جنوده يخرج إليه ويقاتل معه حتى بلغ الحماسة في نفس الأشتر حدا لم يكد يوصف فنزل على ظهر جواده وضربه على وجهه ثم جرد حسامه وانطلق راكضا على قدميه نحو جموع أهل الشام على حين كانت الحرب تدور هكذا على أشدها أمام معكسر معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية قد أرسل عمرو بن العاص يأمره أن يقدم قبيلة عك مع الأشعريين إلى من بأزائهم من جنود الإمام (عليه السلام) فأرسل إليه عمرو بن العاص بأني مضطر إلى أن أقدم قبيلة عك وحدها إلى مقارعة قبيلة همدان.

أما الأشعريون فسوف أرى بعدئذ أين أبعث بهم من الميدان ثم مضى عمرو بن العاص إلى قبيلة (عك) فقال لهم: يا معشر عك ان علياً قد عرف انكم حي من أحياء الشام فعبأ لكم همدان وهم أعداؤكم من أهل العراق فامنحوا جماجمكم ساعة من أصيل هذا اليوم لكسب الظفر، فأجابه مسروق العكي سترى ما يقر عينك

ثم انصرف إلى قومه واستثار هممهم للوغى فقال شاعرهم:

همدان همدان وعك وعك *** سيعلم اليوم من الأرك

وانطلقوا متساندين إلى الوغى واشتبكوا أعنف اشتباك مع الهمدانيين فنادى سعيد بن قيس الهمداني بالهمدان خدموا القوم أي اضربوهم بالسيوف على سيقانهم فنادى أين مسروق العكي في قومه بركا كبرك الكمل أي ابركوا كما يبرك الجمل تحاشياً من سيوف الهمدانيين فقال شيخ من همدان:

يا لبكيل لخمها وحاشد *** نفسي فداك طاعنوا وجالدوا

حتى نخر في الوغى القماحد *** وارجل تتبعها السواعد

بذاك أوصى جدكم والوالد

فتقدم رجل من عك وهو يقول:

يدعون همدان وندعو عكا *** ان خدم القوم فبركا بركا

لا تدخلوا نفسي عليكم شكا

فترك القوم رماحهم جانباً وجردوا سيوفهم فجالدوا حتى أدركوا الليل فاقسمت همدان انها لن تنصرف حتى تنصرف عك وأقسمت عك مثلهم فلما علم معاوية جليلة الأمر أمر قبيلة عك ان تتصرف مراعاة لقسم الهمدانيين قبلهم، فقال عمرو بن العاص:

ان عكا وحاشدا ويكيلا *** كأسود الضراب لافت أسودا

وحبا القوم بالقنا وتساقوا *** بضبات السيوف موتاً عتيداً

يعلم الله ما رأيت من القوم *** ازورارا ولا رأيت صدودا

غير ضرب فوق الطلى وعلى الهام *** وقرع الحديد يعلوا الحديدا

ولقد قال قائل خدموا السوق *** فخرت هناك عك قعودا

كبراك الجمال أثقلها الحمل *** فما تستقل إلاّ وجيدا

وجمع أمير المؤمنين (عليه السلام) قبيلة همدان فقال: يا معشر همدان أنتم درعي ورمحي يا همدان ما نصرتم إلاّ الله ولا أجبتم غيره فقال سعيد بن قيس أجبنا الله وأنت، ونصرنا النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) في قبره، وقاتلنا معك من ليس

مثلك، فارم بنا حيث أحببت. وفي مناسبة ذلك اليوم قال عليّ (عليه السلام):

لو كنت بواباً على باب جنة *** لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وكانت الحرب كلما تمادت وتعاقبت أيامها يتشاءم معاوية في قرارة نفسه بل ويكاد يقنط من الفوز في نهايتها الغامضة بما كان يبغي ويصبو إليه، ولذلك أنشأ يركن إلى اتخاذ كل حيلة ومكيدة تتيح له سبيلا إلى الفوز بما كان يبغي ويصبوا إليه من قبل ففي خلال احدى المعارك الضارية استظهرت كتائب ربيعة بقيادة خالد بن المعمر على جل المدافعين عن فسطاط معاوية فأرسل خالد ان انصرف عني مع قومك ولك امارة خراسان ما بقيت على قيد الحياة فتوقف خالد عن استئناف الزحف وهو على مقربة من صفوف المدافعين عن فسطاط معاوية بحجة الاكتفاء بما أحرزه قومه من انتصار في ذلك اليوم هذه واحدة من مكائده.

وأما الأخرى فإنه استدعى إليه عتبة بن أبي سفيان في صفين وألقى إليه اسلوبا ماكرا لمقابلة الأشعث بن قيس وأوصاه أن يحاوره ويداوره عسى أن يستمليه إليه ويحظى باضعاف جناح عسكري من أجنحة الإمام عليّ (عليه السلام) فمضى عتبة بن أبي سفيان وقابل الأشعث بن قيس فقال له ان معاوية لو شاء أن يلقى رجلاً غير عليّ بن أبي طالب للقيك.. لأنك أنت سيد أهل اليمن وغرة جيش أهل العراق وصهر عثمان بن عفان وليس مقامك كمقام غيرك. فأما الأشتر فقتل الخليفة المظلوم بتحريض عدي بن حاتم وأما سعيد بن قيس فقد تابع عليّاً في دينه ، وأما من سوى أولئك فلا يعرفون غير التقليد.

وأما أنت فقد حاميت عن أهل العراق تكرما، وحاربت أهل الشام حمية، وقد بلغنا والله منك وبلغت منا ما أردت، وانا لا ندعوك إلى

التخلي عن عليّ (عليه السلام) ونصر معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا.

فقال الأشعث بن قيس: أما قولك ان معاوية لا يلقى إلاّ عليّاً فإن لقيني لما عظم عني ولا صغرت عنه، فإن أحب أن أجمع بينه وبين عليّ (عليه السلام) فعلت وأما قولك إني رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن فإن الرأس المتبع والسيد المطاع هو عليّ بن أبي طالب وأما ما سلف من عثمان إليَّ فوالله ما زادني صهره شرفاً ولا عمله عزا وأما عيبك أصحابي فان هذا لا يقربك مني ولا يساعدني عنهم أما محاماتي عن أهل العراق فمن نزل بينا حماه وأما البقية فلستم بأحوج إليها منا، وسترى رأينا فيها.

فلما بلغ معاوية كلام الأشعث قال: يا عتبة لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه وإن كان قد جنح للسلم وشاع في أهل العراق ما دار بين عتبة والأشعث.

وأما الثانية:

فإن معاوية أراد أن يخدع عبد الله بن عباس فاختلى بعمرو بن العاص وقال له ان رأس الناس بعد عليّ بن أبي طالب عبد الله بن عباس فلو ألقيت إليه كتاباً لعلك ترفه به، فإنه ان قال شيئاً لم يخرج عليّ عنه، وقد أكلتنا الحرب ، ولا أرانا نصل العراق إلاّ بهلاك أهل الشام فقال له عمرو: ان ابن عباس لا يخدع ولو طمعت فيه طمعت في عليّ فقال معاوية: على ذلك فاكتب إليه فكتب إليه عمرو بن العاص: أما بعد فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وأنت رأس هذا الجمع بعد عليّ، فانظر فيما بقي ودع ما مضى، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حباء ولا صبراً، واعلموا ان الشام لا تملك إلاّ بهلاك العراق وان العراق لا تملك إلاّ بهلاك

الشام وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم؟ وما خبركم بعد هلاك أعدادكم منا؟ ولسنا نقول ليت الحرب عادت، ولكنا نقول ليتها لم تكن وإن فينا من يكره القتال، كما ان فيكم من يكرهه، وإنما هو أمير مطاع أو مأمور مطيع أو مؤتمن مشاور وهو أنت، وكتب في أسفل الكتاب:

طال البلاء وما يرجى له أس *** بعد الإله سوى رفق ابن عباس

يابن الذي زمزم سقيا الحجيج له***اعظم بذلك من فخر على الناس

انظر فدى لك نفسي قبل قاصمة *** للظهر ليس لها راق ولا آس

إني أرى الخير في سلم الشام لكم *** والله يعلم ما بالسلم من باس

فيها التقى وامور ليس يجهلها *** إلاّ الجهول وما النوكى كأكياس

فأتى ابن عباس بالكتاب إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فضحك وقال: قاتل الله بن العاص ما أغراه بك يا ابن عباس أجبه وليرد عليه شعره الفضل بن العباس فإنه شاعر فكتب ابن عباس إلى عمرو: أما بعد فإني لا أعلم رجلاً من العرب أقل حياء منك انه مال بك معاوية إلى الهوى، وبعثه دينك بالثمن اليسير، ثم خطبت بالناس في عشوة طمعاً في الملك، فلما لم تر شيئاً أعظمت الدنيا اعظام أهل الذنوب وأظهرت فيها النزاهة نزاهة أهل الورع فإن كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعليّ، ابتدأها عليّ بالحق وانتهى فيها إلى الغدر وابتدأها معاوية بالبغي وانتهى فيها إلى السرف وليس أهل الشام وهم خير منه وليس أنا وأنت منها بسواء وأردت الله وادت أنت مصر، فإن ترد شر لأسبقك به وإن ترد خيراً لاستقبنا إليه ثم قال لأخيه الفضل: يابن أم أجب عمرا

فقال الفضل:

يا عمرو حسبك من خدع ووسواسى***فاذهب فليس لداءالجهل من آس

الا تواتر طعن في نحور كمو *** يشجي النفوس ويشفي نخوة الراس

هذا الدواء الذي يشفي جماعتكم *** حتى يطيعوا عليّاً وابن عباس

أما عليّ فإن الله فضله *** بعضل ذي شرف عال على الناس

ان تعقلوا الحرب نعقلها مخيسة *** أو تبعثوها فانا غير انكاس

قد كان منا ومنكم في عجاجتها *** ما لا يرد وكل عرضة الباس

قتلى العراق بقتلى الشام ذاهبة *** هذا بهذا وما بالحق من باس

لا بارك الله في مصر فقد جلبت *** شرا وحظك منها حسوة الكأس

ثم عرض الشعر والكتاب على عليّ (عليه السلام) فقال ألا أراه يجيبك بشيء بعدها أبداً إن كان يعقل ولعله يعود فتعود عليه .. فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص أتى به إلى معاوية فقال: أنت الذي دعوتني إلى هذا ما كان اغناني وإياك عن بني عبد المطلب، فقال: ان قلب ابن عباس وقلب عليّ قلب واحد وكلاهما ولدا عبد المطلب، وإن كان قد خشن فقد لان، وإن كان قد تعظم وعظم صاحبه فقد قارب وجنح إلى السلم وما لنا والاستغراق في عرض جميع المكائد الشاذة التي ابتكرها يومذاك معاوية بن أبي سفيان لتفريق المسلمين عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في أيام صفين لكي يتقيض له أن يزعم بعدها لأهل الشام بأن عليّاً ليس حقيقاً بالاخلاص له، ولا جديراً بامارة المؤمنين وان خير برهان على ذلك تنصل كثير من الزعماء ورؤساء القبائل

عنه من غير تبرير واقع ولا حياء اجتماعي، ولعل خير دليل يؤيد ما نذهب إليه عن مكائد معاوية في صفين (مكيدة رفع المصاحف) يوم أحس بقرب انهياره وانكسار جيشه الغافل عن صحة مطالبته (بدم عثمان بن عفان) وربما يكون من أبرز العجائب انه لم يحصل يومذاك من بين أهل الشام رجل ثقيف يعترض على معاوية قائلاً له: بأن مطالبته بدم عثمان بنعفان لا يصح منه ولا يتحقق بحال من الأحوال ما لم يبايع أولاً للخليفة الشرعي (عليّ بن أبي طالب) ثم يتهم لديه من شاء اتهامه أو ينبري فيتهم من يصح اتهامه من المسلمين باراقة دم الخليفة (عثمان بن عفان) ولكن معاوية قد نفذ مقاصده وأصاب مراميه في الشام مرتجلاً لها ومغمضاً اياها أبرع تغميض حتى حضر مع جيشه في صفين وأحدث فيها أفضع المقاتلة بين جيش الإمام عليّ (عليه السلام) وبين جيشه، وألقى بين سائر الأمة الإسلامية مبادئ الفرقة والأنقسام من يومذاك إلى يومنا هذا المعلوم.

ومهما يكن من أمر ففي غداة يوم الثلاثاء عاشر شهر ربيع الأول من السنة السابعة والثلاثين للهجرة غلس الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في صلاة الغداة ثم نهض فباشر الزحف على جيش الشام وكان وقتئذ على ميمنة جيشه مالك الأشتر وعلى ميسرة جيشه عبد الله بن عباس وهو في القلب مشرف على سائر الميدان بينما انتظم الناس على حسب اعلامهم ورياتهم المتمايزة في خلال الحروب، ثم اضطرم الاشتباك بين الجيوش المتقاتلة كأشد وأنكى اضطرام، فلقد باكروا القتال جميعاً بالنبال والرماح حتى فنيت من أيديهم ثم تجالدوا بالسيوف حتى تثلمت فعمدوا إلى عمد الحديد ضرباً على الرؤوس والأكتاف حتى بان على أكثرهم سيماء الكلل والاعياء، فتعذر على الناس إذ ذاك أن يصلوا صلواتهم إلاّ بمجرد التكبير تحت قتر الأغيرة وتكاثف

القتام ولم يجهر من حناجرهم غير الهمهمة المتهافتة و؟؟؟ العميقة، ولم يتوقف القتال بين الفريقين هوناً إلا حين وسعهم أن يذهبوا مستعينوا بأسلحة آخر تعويضاً عن التي تكسرت من قبل في المعركة.

أما الأشتر فقد بلغت فيه الشجاعة واستغلالها في الفتك بأعدائه وفي ارهاب قلوبهم حداً أضاف إلى شجاعته النادرة مهارة نادرة في القتل الذريع ونبث على هذا الغرار في (ليلة الهرير) في نهار اليوم التالي لها، وهو تارة يهاجم أعداءه وتارة أخرى يرتاد الميدان ما بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة من قبائل أنصاره على التي تليها إلى ارتفاع الضحى وإلى أن أصبحت المعركة خلف ظهره تمور موراً بالموت الزؤام فأقبلت المشيخة من أهل الشام وقتذاك يتصارخون في خلال تلك الغمرات الرهيبة: (يا معشر العرب، الله ، الله في الحرمات من النساء والبنات) ولكن الأشتر جعل يزحف ويصيح متحمساً بأنصاره ازحفوا قيد رمحي هذا، فإذا زحفوا قال ازحفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا دعاهم إلى المزيد، ولما بلغ في الزحف ما أراد دعا بفرسه وركز رايته وأمر حاملها وكان (حيان بن هوذة النخعي) وأمره أن يتقدمه نحو أعدائه وهو يصيح: اصبروا يا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس ولقد شاءت المقادير أن يقتل وقتئذ، حيان بن هوذة النخمي مقداماً ناصع الذكر والجبين في تلك المعركة.

أما عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) فقد كان في غضون تلك المعارك يعاني عرض شعورين متعارضين في نفسه، فهو ينظر تارة إلى جثث القتلى من مسلمي أهل الشام وأهل العراق فيحزن لمقتلهم ويتمنى لو لم تكن معارك صفين قد حدثت ليبقى أولئك القتلى أحياء على سطح الأرض قوة جاهزة متوافرة لصون الدين الإسلامي وتعزيره وتوسيع أرجائه في مشارق الدنيا

ومغاربها وهو ينظر تارة أخرى إلى معاوية فيراه قد استجمع جيشاً من أهل الشام من بني أمية ومن رجال آخرين يبتغون جر المنافع كيفما يظفرون بها كعمرو بن العاص، ولا يعوقهم عن بلوغ ما يرومون إلاّ وجوده هو بالتعين ولذلك فانهم كانوا يضمرون له في دخائلهم أن يقتلوه لينفسح أمامهم طريق السيطرة على دست الخلافة وعلى الأقطار الإسلامية قطراً بعد قطر فيصبح الدين الإسلامي عرضة للضمور إن لم يصبح عرضة للزوال من جراء سكوته إذا سكت عن مقاصد معاوية ومطامع مناصريه الخفية عن الافتضاح. فعلي بن أبي طالب (عليه السلام) كان يعاني من عرض هذين الشعورين المختلفين في طبيعتيهما ليلاً نهار غير انه كان قد آثر مكافحة معاوية بكل ذريعة متاحة لديه صيانة للدين الإسلامي من التعرض للأخطار.

أجل، ولهذا السبب قال عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) متسائلاً في اليوم الثاني قبل ليلة الهرير: حتى متى تترك هذين المعسكرين يتقاتلان ويتفانيان من غير أن يهتديا إلى سبيل رشيد لحسم المعارك بينهما؟ ثم اتجه نحو القبلة ورفع يديه نحو السماء وقال: يا الله، يا رحمن، يا واحد، يا أحد يا إله محمّد اللّهم إليك نقلت الأقدام وأفضيت القلوب ورفعت الأيدي وامتدت الأعناق وشخصت الأبصار وطلبت الحوائج انا نشكو إليك غيبة نبينا (صلّى الله عليه وآله وسلم) وكثرة عدونا وتشتت أهوائنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، ثم التفت إلى من حوله من أنصاره وقال لهم سيروا على بركة الله ثم نادى: لا إله إلاّ الله والله أكبر كلمة التقوى. ثم تقدم أمام أنصاره واستمر يقاتل أعداءه فقتل في ذلك اليوم خمسمائة فارس منهم فلقد كان يخرج بسيفه ويعود به منحنياً إلى بعض أصحابه فيقول لهم: معذرة إلى الله وإليكم إذا ما رأيتم سيفي منحنياً وأروم منكم تقويمه ولقد هممت ان

أفلقه ولكن حجزني عنه إني سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) يقول كثيراً:

لا سيف إلاّ ذو الفقار *** ولا فتى إلاّ عليّ

وأنا أقاتل به دونه فكنا نأخذه فنقومه فيأخذه من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف، فلا والله ما لبث بأشد منه نكاية في عدوه. ولقد خطب الناس في ذلك اليوم فقال: أيها الناس، قد بلغ الأمر بعدوكم ما قد رأيتم ولم يبق منهم إلاّ آخر نفس، وان الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا وأنا غاد عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل(30).

فبلغ ذلك معاوية بن أبي سفيان فدعا إليه عمرو بن العاص فقال له: يا عمرو إنما هي هذه الليلة حتى يغدو عليّ بن أبي طالب علينا بالفصيل فما ترى؟ قال أرى ان رجالك لا يقومون لرجاله، ولست أنت مثله فهو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء، وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك ان ظفرت بهم وأهل الشام لا يخافون عليّاً ان ظفر بهم ولكن ألق إليهم أمراً ان قبلوه اختلفوا وإن ردوه اختلفوا أدعهم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم فإنك بالغ به حاجتك في القوم فإني لم أزل أؤخر هذا الأمر لحاجتك إليه فقال معاوية صدقت وأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل والناس على راياتهم فاستقبلوا عليّاً (عليه السلام) بمئة مصحف ووضعوها في كل مجنبة ثم وضعوا مئتي مصحف في مقدمة العساكر. وشدوا ثلاثة رماح جميعاً وربطو عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشرة أرهاط وجعلوا ينادون يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم، يا عمشر العرب الله ، الله في نسائكم

وبناتكم فمن للروم؟ ومن للأتراك ومن لأهل فارس غداً(31).

إذا ما فنيتم ؟ الله الله في دينكم. وأقبل أبو الأعور السلمي حينذاك على يرذون أبيض، وقد وضع المصحف على رأسه ينادي: يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اللّهم إنك تعلم ما الكتاب يريدون، فاحكم بيننا وبينهم انك أنت الحكيم الحق المبين. عباد الله: أنا أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معبط وحبيب بن سلمة وابن سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن. إني أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال.

انها كلمة حق يراد بها باطل، انهم والله ما رفعوها حقا، انهم يعرفونها ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلاّ خديعة ومكيدة.

أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلاّ أن يقطع دابر الذين ظلموا.

فجاءه زهاء عشرين ألفاً وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه المجرد ولا بأمرة المؤمنين.. يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلاّ قتلناك كما قتلنا (عثمان بن عفان) فوالله لنفعلها إن لم تجبهم!! فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله. وأول من أجاب إليه، وليس يحل لي، ولا يسعني في ديني ان أدعى إلى كتاب الله حقاً فلم أقبله، إني إنما أقاتلهم ليدنوا بحكم القرآن فإنهم قد عصواالله فيما أمرهم ونقضوا عهده ونبذوا كتاب الله، ولكن قد أعلمتكم

انهم قد كادوكم وانهم ليسوا يريدون العمل بالقرآن فأجابوه ان ابعث ليأتينك الأشتر.

وكان الأشتر صبيحة ليلة الهرير قد أشرف على معسكر معاوية وكاد أن يدخله، فأرسل إليه الإمام (عليه السلام) يزيد بن هاني مضطراً ليعود إليه فأبى ورجع يزيد بن هاني إلى عليّ (عليه السلام) وأخبره بالرفض فارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ودلائل الخذلان والأدبار على أهل الشام فقال له القوم المعترضون: ما نراك إلاّ أمرته بقتال القوم . أرأيتموني سارت رسولي أو ناجيته إليس إني كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون، قالوا: فابعث إليه فليأتك وإلاّ فوالله اعتزلناك قال: ويحك ما يريج قل له أقبل إليَّ فإن الفتنة قد وقعت فأتاه فأخبره بالأمر فقال له الأشتر : الرفع هذه المصاحف؟

قال: نعم، قال أما والله لقد ظننت انها حين رفعت ستوقع اختلافاً وفرقة انها من مشورة ابن النابغة عمرو بن العاص، وقال ليزيد: ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟ فقال له (يزيد) أتحب انك ظفرت هاهنا وان أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به لا يفرج عنه ويسلم إلى عدوه؟ قال: سبحان الله!!! والله ما أحب ذلك أبداً، قال: فإنهم قالوا: لترسلن إلى الأشتر فليأتيك أو لنقتلك كما قتلنا (عثمان) أو لنسلمك إلى عدوك!!!

فأقبل الأشتر فصاح بأهل الذل والوهن.. أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وقد والله تركوا ما أمر الله فيها وسنّة من أنزلت عليه فلا تجيبوهم أمهلوني فواقاً فإني قد أحسست بالفتح، قالوا: لا، قال: فامهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت النصر

قالوا: اذن ندخل معك في خطيئتك، قال: فحدثوني عنكم وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقين حيث كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون أم الآن محقون فقتلاكم الذين تنكرون فضلهم وكانوا خيراً منكم في النار؟ قالوا: دعنا منك يا أشتر، قاتلناهم في الله، وندع قتالهم في الله أنا لسنا نطيعك، فأجتنبنا قال: خدعتم والله فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا.. وشوق إلى لقاء الله، فلا أرى فراركم إلاّ إلى الدنيا من الموت . ألا قبحاً يا أشباه النيب الجلالة، ما أنتم برائين بعدها عزاً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون، ثم التفت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال : يا أمير المؤمنين، احمل الصف على الصف يصرع القوم، فقالوا: ان عليّاً أميرالمؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن، قال ان كان قد قيل ورضي أمير المؤمنين فقد رضيت بما رضى به(32).

لا شك في ان الذين رفضوا الأستمرار على استئناف الحرب وأثروا المهادنة في ذلك اليوم مع أعدائهم ولم يطيعوا لنصيحة أمير المؤمنين (عليه السلام) لمواصلة القتال كانوا خليطاً من أشباه الجبناء ذوي الآراء الانسياقية وراء كل ناعق، ولا يتورعون من التسرع في استيطان العواقب المتوقعة عنه آخر فكل مطلب بهيم دامس، ولولا ان ذلك كان كذلك لاستأجلوا الاستجابة للذي عرضه عليهم معاوية من رفع المصاحف حتى يمنعوا الروية فيه بعد يوم واحد على أقل تقدير وليبينوا ما فيه لهم من صالح وطالح أو ما فيه رضاء الله وسخطه، أو ما تقتضيه طبيعة الحرب القائمة بينهم منذ شهور، وإلاّ فما أسرع ما استجابوا لدعوة معاوية وعمرو بن العاص ومروان بن الحكم وهي دعوة

قد دبروها في ليل غدار وانطلقت المكيدة على فئة من أهل العراق.

فأقبل عدي بن حاتم الطائي فقال: يا أمير المؤمنين إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق فإنه لم يصب عصبة منا إلاّ وقد أصيب(33) مثلها منهم وكل معشر مقروح ولكنا أمثل بقية وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلاّ ما تحب ، فناجز القوم فقام الأشتر النخعي فقال: ان معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لم يكن له مثل صبرك ولا بصرك فاقرع الحديد بالحديد، واستعن بالله الحميد، وقام عمرو بن الحمق الخزاعي فقال: يا أمير المؤمنين، إنا ما اخترناك ولا نصرناك عصبية على الباطل، ولا أجبنا إلاّ الله عز وجل ولا طلبنا إلاّ الحق، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لكان فيه اللجاج، وطالت فيه النجوى، وقد بلغ الحق مقطعه، وليس لنا مثل رأيك رأي وقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أمير المؤمنين انا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، وليس آخر أمرنا كأوله، وما من القوم أحد حتى على أهل العراق، ولا أوتر لأهل الشام مني، فأحب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال وحاج الناس وقالوا: أكلتنا الحرب وقتلت الرجال وقال قوم: نقاتل القوم على ما قاتلنا عليه أمس... ولم يقل هذا إلاّ قليل من الناس، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): انه لم يزل أمري معكم على ما أحب... إلى أن أخذت منكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وأخذت من عدوكم ولم تترك وانها فيهم أنكى وأنهك، إلاّ إني كنت بالأمس أمير المؤمنين فأصبحت اليوم مأموراً وكنت ناهياً فأصبحت منهياً، وقد أحببتم البقاء، وليس لي ان أحملكم على ما تكرهون .. ثم قعد.

وتكلم رؤساء القبائل فأما من ربيعة – وهي الجبهة العظمى – فقام كردوس بن هانئ البكري فقال: أيها الناس، انا والله ما تولينا معاوية منذ تبرأ منه، ولا تبرأنا من عليّ منذ توليناه وإن قتلانا لشهداء، وإن أحياءنا لأبرار، وان عليّاً (عليه السلام) لعلى بينة من ربّه وما أحدث إلاّ الانصاف وكل محق منصف فمن سلم له نجا ومن خالفه هلك.

وقام شقيق بن ثور البكري فقال: أيها الناس انا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فردوه علينا حل لهم منا ما حل لنا منهم، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله، وان عليّاً (عليه السلام) ليس بالراجع الناكص، ولا الشاك الواقف، وهو اليوم على ما كان عليه أمس، وقد أكلتنا هذه الحرب، ولا نرى البقاء إلاّ في الوادعة وقام حريب بن جابر البكري فقال: أيها الناس ان عليّاً لو كان حلفاً من هذا الأمر لكان المفزع إليه.. فكيف وهو قائده وسائقه، ان والله ما قبل من القوم اليوم إلاّ ما دعاهم إليه أمس، ولو رده عليهم كنتم له أعنت وقام خالد

بن المعمر فقال: يا أمير المؤمنين انا لا نرى البقاء إلاّ فيما دعاك إليه القوم إن رأيت ذلك، فإن لم تر فرأيك أفضل، ثم قام الحصين بن المنذر الرقاش وهو من أصغر القوم سناً فقال: أيها الناس، إن لنا راعياً قد حمدنا، ورده وصدره وهو المصدق على ما قال، المامون على ما فعل فإن قال لا، قلنا لا وإن قال نعم قلنا نعم. وقال رفاعة بن شداد البجلي: أيها الناس انه لا يفوتنا الأمر على ملئ الأمر من حقنا، وقد دعوناهم إليه في أوله، فإن أبيتم الأمر على ما نريد وإلاّ أثرناها جذعة.

كان أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذلك الأوان محرجاً في أمره بين أولئك المنحرفين عن سبيله اللاجب وبين أولئك والسالكين معه على سبيله، وبين الذين تحيروا في أمرهم بين أولئك وأولئك لا يدرون أي السبيلين يسلكون فهو إذ ما أصر

على تنفيذ رأيه آثار حفائظ المنتقضين عليه امام عيون مؤيديه وسبب مقتله مشينة بينهما يهلك فيها جموع من المسلمين فضلاً عن كونه سيخلف ضمناً سابقة سيئة يتخذها بعض الحكام المسلمين بعده مبرراً لتصريف مشايئهم، ولذلك أثر حقن الدماء وقمع الفتنة في صفين عسى أن يرعوي أولئك المنتقضون عليه إذا ما عادوا إلى الكوفة، وفي أثنا ذلك الأوان أرسل معاوية كتاباً إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال فيه ان هذا الأمر قد طال بيننا وبينك، وكل واحد منا يرى انه على الحق، وقد قتل بيننا كثير من المسلمين، وانا أتخوف ان يكون ما بقي أشد مما مضى فهل ترى ان يحكم بيننا وبينكم حكمان رضيان احدهما من أصحابي والآخر من أصحابك فيحكمان بما في كتاب الله بيننا فاتق الله فيما دعيت له والسلام.

فكتب إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) جواب كتابه قال في آخره : انك قد دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت انك لست من أهل القرآن ولست حكمه تريد والله المستعان، ولقد أجبنا للقرآن إلى حكمه، ولسنا إياك أجبنا ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالاً بعيداً فبعث عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قراء من أهل العراق وبعث معاوية قراء من أهل الشام فاجتمعوا بين الصفين ومعهم المصحف فنظروا فيه ما شاؤا أن ينظروا فيه وأجمعوا على أن يحيوا ما أحيا ويميتوا ما أمات ثم انصرف كل فريق من القراء إلى أصحابه.

وبعد بضعة أيام أشيع فيما بين أهل العراق وأهل الشام بأن عمرو بن العاص اختير حكماً وحيداً مرشحاً من قبل معاوية بن أبي سفيان للمشاركة مع الحكم المرشح من قبل عليّ بن أبي طالب وأصحابه لانجاز كتاب الصلح بين الفريقين المتهادنين فأعلن عليّ بن أبي طالب حينذاك انه أزمع أن يرشح عنه رجلاً محنكاً ماهراً هو عبد الله بن العباس يمثله عند المشاركة مع عمرو بن

العاص لانجاز كتاب الصلح إلاّ ان الذين انتفضوا عليه آنفاً والذين صاروا يشايعونهم في اصرارهم على ايقاف الحرب قالوا انهم يختارون (أبا موسى الأشعري) أي عبد الله بن قيس وهكذا أجمعوا على اختيار (أبي موسى الأشعري) ليمثل عليّاً وأهل العراق لانجاز كتاب الصلح المنشود فجاء الأشتر فقال: يا أمير المؤمنين : أرني عمرو بن العاص فوالله الذي لا إله إلاّ هو لئن ملأت عيني منه لأقتلنه. فأغمض الإمام (عليه السلام) عينيه ثم فتحها بما يدل على عدم رضاه عن ذلك. وجاء الأحنف بن قيس التميمي فقال: يا أمير المؤمنين إني قد عجمت هذا الرجل – يعني أبا موسى الأشعري – فوجدته كليل الشفرة قريب القعر وانه رجل يماني وقومه مع معاوية بن أبي سفيان وانه لا يصلح لهؤلاء القوم إلاّ رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم، ويتباعد منهم حتى يكون بمنزلة النجم فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني وإن قلت إني لست من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فابعث رجلاً من أصحابه غير (عبد الله بن قيس) واجعلني معه ثانياً أو ثالثاً فإنه لا يعقد عقدة إلاّ حللتها، ولن يحل عقدة إلاّ عقدتها وعقدت لك أخرى أشد منها. فعرض مقترح الأحنف بن قيس التميمي على الناس فأبوه وقالوا: لا يكون إلاّ أبا موسى فقال الإمام (عليه السلام): قد أبيتم إلاّ أبا موسى؟ قالوا نعم، قال: فاصنعوا ما أردتم، يلوح لي ان عليّاً كان يكتم في نفسه قبلئذ شيئاً نابياً وقع من أبي موسى الأشعري آنفاً لم يستسغ شرعاً فضمه للعيان غير ان بعض الأمارات الغامضة كانت تتم عليه في أوقات عارضة، ففي يوم من الأيام مثلاً سمع أبو موسى ان الحسن بن عليّ (عليه السلام) مريض في منزله فجاء يعوده كغيره من نخبة الناس ، ولما استقر به القعود سأله عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) أجئتنا عائداً

أم شامتاً؟ فأجابه أبو موسى قائلا: بل عائداً ثم استأذنه بالانصراف فانصرف(34).

وهذا السؤال هو من غير مراء يدل على وجود شيء مستنكر مكتوم في نفس الإمام (عليه السلام) لا يعرضه للافشاء فينكأ بأبي موسى الأشعري من غير تحفظ (وأبو موسى عند المعتزلة من أرباب الكبائر) (35) المنبوذين وهذا يدل على انهم يعرفون عنه شيئاً يسبغ لهم اعتباره من أرباب الكبائر وعلى الاختصار كان أبو موسى الأشعري متولياً على امارة الكوفة وعند قتل عثمان بن عفان في المدينة واختار المسلمون بعده عليّ بن أبي طالب خليفة لهم لتصريف شؤونهم وتسديد مقتضيات أمورهم فبادر الإمام عليّ (عليه السلام) إلى عزله وشيكاً فانصرف إلى الشام واجداً مستنكراً عزله، وبقي كذلك حتى في خلال اختباره (أحد الحكمين) في صفين لتوقيع عهد الصلح بين معاوية وأهل الشام وعلي بن أبي طالب وهل العراق وكان عليّ بن أبي طالب (عليه

السلام) بعد ذاك يقنت في أعقاب كل صلاة ويقول: اللّهم العن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وأبا الأعور السلمي وأبا موسى الأشعري(36) وغني عن التبرير انه لم يفتت على أولئك إلاّ من جراء ذنوب اقترفوها فأخرت بالمسلمين عامة ويقول أبو عمر بن عبد البر في كتابه الاستيعاب في سياق حديثه عن (أبي موسى): أما انا فأشهد انه عدو الله ورسوله وحرب لهما في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد).

حسبنا الآن ما تفيض بيانه من حديث (وقت القتال في صفين) ولنعد إلى حديث الاتفاق على عهد الصلح بين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وبين معاوية بن أبي سفيان رأى بعدما رضي أهل الشام بعمرو بن العاص ورضى

أهل العراق بأبي موسى الأشعري أن يكونا حكمين بينهما وعنهما. فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنّة نبيّه (صلّى الله عليه وآله وسلم) قضية عليّ (عليه السلام) على أهل العراق ومن كان معه من شيعته من شاهد أو غائب، وقضية معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومن كان معه من شيعته انا ننزل حكم القرآن فيما حكم به، ونقف عند أمره فيما أمر ولا يجمع بيننا إلاّ ذلك وانا جعلنا كتاب الله حكماً فيما بيننا فيما اختلفا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات، على ذلك تقاضينا وبه تراضينا، فما وجد الحكمان في كتاب الله بيننا وبينكم فإنهما يتبعانه وما لم يجداه في كتاب الله أخذا بالسنّة العاملة الجامعة غير المعروفة وان عليّاً وشيعته رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحاكماً كما رضي معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظراً ومحاكماً وأخذوا عليهما عهد الله وميثاقه وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه ليتخذا الكتاب إماماً فيما بعثا له لا يعدوانه إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه سطوراً، وما لم يجداه مسمى في الكتاب رداه إلى سنّة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلم) الجامعة ولا يتعمدان لها خلافاً ولا يتبعان في ذلك لها هوى ولا يدخلان في شبهة وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عبد الله وميثاقه بالرضى بما حكما به من كتاب الله وسنّة نبيّه (صلّى الله عليه وآله وسلم) وليس لهما ان ينقضا ذلك ولا بالغاه إلى غيره وانهما أمناه في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما ما لم يعدوا الحق رضى بذلك راض أو أنكره منكر وان الأمة أنصار لهما على ما قضيا به من العدل، فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمر شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلاً لا يألون عن أهل المعدلة والأقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق

والحكم بكتاب الله وسنّة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) وله مثل شرطه، وإن مات أحد الأميرين من قبل القضاء فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله وقد وقعت القضية ومعها الأمن والتفاوض ووضع السلاح والوداعة وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه أن لا يألوا جهداً ولا يتعمدوا جوراً ولا يدخلا في شبهة ولأبعد وأحكم الكتاب وسنّة رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلم) فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة، وقد وجبت القضية على ما سمي في هذا الكتاب من مواقع الشروط على الأميرين وعلى الحكمين والفريقين، والله أقرب شهيداً وأوفى حفيظاً والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل والسلاح موضوع والسبل مخلاة، والغائب والشاهدين الفريقين سواء في الأمن، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ولا يحضرهما فيه إلاّ من أحيا عن ملأ منهما وتراض وإن المسلمين قد أجلوا القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له عجلاها وإن أراد تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول في الحرب ولا شرط بين واحد من الفريقين، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما في الكتاب وهم يد على من أراد فيه الحاداً وظلماً أو حاول له نقضاً وشهد بما في الكتاب من أصحاب من عليّ (عليه السلام) عبد الله بن عباس (الأشعث بن قيس) والأشتر مالك بن الحارث، وسعيد بن قيس الهمداني، والحصين بن الحارث بن المطلب، والطفيل بن الحارث بن المطلب وأبو أسيد ربيعة بن مالك الأنصاري وعوف بن الحارث بن المطلب القرشي، وبريدة السلمي وعقبة بن عامر الجهمي ورافع بن حديج الأنصاري وعمرو بن الحمق الخزاعي والحسن والحسين ابنا عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وعبد الله بن جعفر الهاشمي، والنعمان بن عجلان الأنصاري، وحجر بن

عدي الكندي، وورقاء بن مالك بن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، وأبو صفرة بن يزيد والحارث بن مالك الهمداني وحجر بن يزيد وعقبة بن حجية. وشهد بما في هذا الكتاب من أصحاب معاوية، حبيب بن مسلمة الفهري وأبو الأعور بن سفيان السلمي، وبسر بن أرطاة القرشي، ومعاوية بن خديج الكندي، والخارق بن حارث الحميري، ودعبل بن عمرو السكسكي، وعبد الرحمن بن خالد المخزومي، وحمزة بن مالك الهمداني، وسبيع بن يزيد الهمداني، ويزيد بن الحر الثقفي، ومسروق بن حرملة العكي، وخالد بن المعرض السكسكي، ونمير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الكلبي، وعلقمى بن يزيد الجرمي، وعبد الله بن عامر القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعتبة بن أبي سفيان، ومحمّد بن

أبي سفيان، ومحمّد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة بن عمر اللجيبي، والحارث بن زياد القيني، وعاصم بن المنتشر الجذامي، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع الحميري، والفتاح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك.

وإن بيننا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه، وكتب عميره يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة 37 هـ . وانعد الحكمان (اذرح) وان يجييء عليّ بأربعمائة من أصحابه ويجييء معاوية بأربعمائة من أصحابه يشهدون الحكومة، والأجل إلى شهر رمضان لثمانية أشهر.

ولما كتبت الصحيفة دعى إليها الأشتر لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي ان كتب لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة أولست على بينة من ربّي، ويقين من ضلالة عدوي، أولستم قد رأيتم الظفر ان لم تجمعوا على الحور؟ فقال له رجل: انك والله ما رأيت ظفراً ولا خوراً؟ هلم فاشهد على نفسك واقرر بما في هذه الصحيفة فإنه لا رغبة بك

عن الناس. قال: بلى والله ان بي لرغبة عنك في الدنيا للدنيا وفي الآخرة للآخرة، ولقد سفك الله بسيفي هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندي ولا أحرم دماً. قال عمار بن ربيعة فنظرت إلى ذلك الرجل وكأنما قصع على أنفه الحمم، وهو الأشعث بن قيس، ثم قال لكي قد رضيت بما صنع أمير المؤمنين ودخلت فيما دخل فيه وخرجت مما خرج منه فإنه يدخل إلاّ في هدى وصواب، ثم أقبل الأشعث بن قيس متظاهراً بجنوحه إلى تأييد ما ورد في كتاب الصلح قبل سائر أصحاب الإمام عليّ (عليه السلام) وأخذه من يد الكاتب عميرة وانطلق به جمهور أهل الشام فأوجز لهم فحواه فرفضه جمع منهم، ورضي به آخرون.

وهكذا انتهت الوهلة الأولى من نجز الاتفاق على كتاب الصلح وأجمع الإمام عليّ (عليه السلام) أمره على العودة مع رهطه إلى الشام على أن يعود الحكمان بعد ثمانية أشهر في شهر رمضان إلى الاجتماع ثانية في (أذرح) وهو موضع بين الشام وصفين والكوفة لانهاء الاتفاق على موقف القتال بين الإمام وأصحابه وبين معاوية وأصحابه بحضور أربعمائة رجل من أنصار الإمام عليّ (عليه السلام) وأربعمائة رجل من أنصار معاوية فبعث الإمام بأنصاره وعلى رأسهم عبد الله بن العباس يصلي بهم ويتعهد مطالب حياتهم. وفي ضمنهم (ابو موسى) وبعث معاوية بن أبي سفيان بأربعمائة من أنصاره وعلى رأسهم شرحبيل بن السمط مع عمرو بن العاص. وقال له انك رجل من قريش، وان معاوية لم يبعثك إلاّ ثقة بك، وانك لن تؤتي من عجز ولا مكيدة فكن عند ظننا بك. ثم جاء إلى أبي موسى الأشعري وقال له انك قد نصبت لأمر عظيم. ولا يجبر صدعه ولا يستقال

فتقه، وانه لا بقاء لأهل العراق ان ملكها معاوية ولا بأس لأهل الشام إن ملكها عليّ بن أبي طالب وقد كنت منك تثبيطة بالكوفة فإن تشفعها بمثلها يكن الظن فيك يقينا والرجاء بأسا وكان

ص 171

آخر من ودع أبا موسى (الأحنف بن قيس) فقال له : يا أبا موسى اعرف خطب هذا الأمر، واعلم ان له ما بعده، وانك ان أضعت العراق فلا عراق، فأتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك . وإذا لقيت عمرا غداً فلا تبدأه بالسلام فإنها وإن كانت سنة، إلاّ انّه ليس من أهلها، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة ولا تلقه إلاّ وحده، واحذره أن يكلمك في بيت فيه مخدع قد يختبئ فيه الرجال والشهود، ثم أراد الأحنف بن قيس أن يختبر ما في نفس أبي موسى الأشعر فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي بن أبي طالب فخيره بين أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شاؤا، قال أبو موسى: قد سمعت ما قلت غير مستنكر.

ولما ألتقى أبو موسى الأشعري بعمر بن العاص في فسطاط التحكيم استوفز أبو موسى للكلام وقال لعمرو: هل لك يا أبا محمّد في أمر هو للأمة صلاح ولصلحاء الناس رضا بأن نولي (عبد الله بن عمر بن الخطاب) الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة؟ فقال له عمرو: فأين أنت عن معاوية؟ فأبى عليه أبو موسى رافضاً(37).

وكان في ذلك الوقت عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن هشام، وعبد الرحمن بن يغوث، وأبو الجهم بن حيفة العبدي، والمغيرة بن شعبة جميعهم شهدوا ذلك اللقاء مستمعين ليس إلا، فقال عمرو بن العاص لأبي موسى: ألست تعلم ان عثمان قتل مظلوماً قال بلى، فقال: ما يمنعك من تولية معاوية... وبيته من قريش ما قد علمت وإن خشيت ان يقول الناس: قد ولي معاوية وليست له سابقة، ولكن يا أبا موسى فإن له بذلك حجة بأنه ولى الخليفة المظلوم الحسن السياسة... الحسن التدبير

ص 172

وهو أخو أم حبيبة أم المؤمنين وأحد الصحابة وهو ان ولى هذا الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها، فقال أبو موسى: اتق الله يا عمرو، فإن ذكرك شرف معاوية فإن هذا الأمر ليس يقام على الشرف يولاه أهله، ولو كان على الشرف يولاه أهله لكان أحق الناس به ابرهة بن الصياح، إنما هذا الامر هو لذوي الدين والفضل، مع إني لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً لأعطيته عليّ بن أبي طالب، وأما قولك: ان معاوية ولي عثمان.. فأنى لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين. وأما تعريضك لي بالسلطان فلا رغبة لي فيه ولا كنت لأرتشي في الله، ولكنك ان شئت أحينا سنّة عمر بن الخطاب أو اسم عمر بن الخطاب، فقال له : إن كنت تريد أن تبايع عمر فما يمنعك من ابني وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ قال: ان ابنك رجل صدق، لكنك قد غمسته

في هذه الفتنة فإن شئت ولينا هذا الأمر الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال عمرو: ان هذا الأمر لا يصلح سوى رجل (ذي ضرس) يأكل ويطعم وإن عبد الله ليس هناك، فبادر ابن عمر من موقعه هناك وقال لعمر بن العاص: ويلك يا ابن العاص إن العرب قد سندت إليك أمرها بعدما تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح، فلا تردهم في فتنة واتق الله.

وكان عمرو وأبو موسى منذ التقيا (بدومة الجندل) أخذ عمرو يقدم أبا موسى في الكلام ويقول له انك قد صحبت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) قبلي وأنت أكبر مني سناً، فتكلم أنت ثم أتكلم أنا، وجعل يقدمه في كل شيء مما يغتره بذلك ليقدمه فيبدأ بخلع الإمام عليّ (عليه السلام) فلما أراده عمرو على معاوية فأبى وأراده على ابنه فأبى على حين ان أبا موسى أراد عبد الله بن عمر بن الخطاب فأبى عمرو بن العاص، ثم قال أخبرني يا أبا موسى ما رأيك؟

قال: رأي أن أخلع هذين الرجلين عليّاً ومعاوية ثم نجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاؤوا فقال له عمرو: الرأي ما رأيت.

فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون يترقبون عاقبة اجتماعهما فتكلم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وقال: ان رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة، قال عمرو: صدق ، قال يا أبا موسى تقدم فتكلم، فتقدم أبو موسى ليتكلم فدعاه عبد الله بن عباس إليه فقال: ويحك إني لأظنه والله قد خدعوك فإن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك فيتكلم بذلك الآمر قبلك ثم تكلم بعده فإن عمراً رجل غدار ولا آن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فإذا قمت به في الناس خالفك، فقال: أنا قد اتفقنا وكان أبو موسى الأشعري رجلاً مغفلاً فتقدم إلى الناس وقال: أيها الناس انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع عليّ ومعاوية، ونستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين فيولون أمورهم من أحبوا، وإني قد خلعت عليّاً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولو من رأيتم لها أهلاً، ثم تنحى وقعد. فقام عمرو بن العاص مقامه فقال: ان هذا ما قد سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه، فقال له أبو موسى: مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت وإنما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فقال عمرو: إنما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً، فحمل شريح بن هاني على عمرو فقنعه بالسوط جزاء خيانته وحمل عمرو على شريح فضربه بالسوط وقام الناس فحجزوا

بينهما، فكان شريح بن هاني يقول ما ندمت على شيء ندامتي على أن لا أكون ضربته بالسيف بدل السوط وأتى الدهر بما أتى، والتمس أصحاب عليّ (عليه السلام) أبا موسى فركب

ص 174

ناقته مسرعاً ولحق بمكة، وكان أبو موسى يقول : قد حذرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكن اطمأننت إليه وظننت انه لن يؤثر شيئاً في نصيحة الأمة، وانصرف عمرو بن العاص وأهل الشام بعد ذلك إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة وانصرف ابن عباس وشريح ومن معهما إلى عليّ (عليه السلام) وانتهت مهزلة (تحكيم الحكمين) التي دبر عواقبها عمرو بن العاص وشرى دينه بأمارة مصر، ثم ان معاوية بعدما ولاه مصر جعل يدبر سبيلاً لعزله عنها ثم عزله عنها وولاها عبد العزيز بن مروان بن الحكم فكتب عمرو يقول(38):

معاوية الحال لا تجهل *** وعن طرق الحق لا تعدل

خلعت الخلافة من حيدر *** لخلع النعال من الأرجل

وألبستها لك يا بن اللئام *** كلبس الخواتم في الأنمل

ولو لاي كنت كمثل النساء *** تعاف الخروج من المنزل

ولم تك والله من أهلها *** وربّ العباد ولم تكمل

فأين الحصى من نجوم السماء *** وأين الحسام من المنجل

وأين الثريا وأين الثرى *** وأين معاوية من عليّ

وأعطيت مصراً لعبد العزيز *** ولم تعطني زبدة الخردل

أجمع الرواة والمؤرخون على ان عليّاً (عليه السلام) عندما رجع من صفين إلى الكوفة اتخذ له طريقاً غير التي اتخذها عند خروجه منها إلى صفين وأصحب من ورائه وعن يمينه وعن شماله نخبة ممن حاربوا باخلاص معه أهداف معاوية وأساليب مكره من أجل الاستحواذ على بقعة من بلاد الإسلام. وكان

ص 175

أول قوله نطق بها آنذاك قوله: (أئيون، عايدون، لربنا حامدون، اللّهم إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل، وأعاد المسير حتى جاوز بلدة هيت، فاستقبله عندها بنو سعيد بن خريم الأنماريون، ورحبوا بمروره على ديارهم فبات عليّ (عليه السلام) مع أصحابه بعيداً عن البلدة حتى إذا ما أسفر الفجر صلّى بهم ثم أعاد مسيره نحو (النخيلة) ولما ان جاوزها بقليل أبصر شيخاً مدتفا من بني (سلامان) اسمه صالح بن سليم فسأله عما يقول الناس بشأن ما وقع بينه وبين أهل الشام؟ قال: منهم

المسرور وأولئك أغنياء الناس ومنهم المكبوت غماً وأولئك نصحاء الناس لك. فقال: صدقت يا صالح، ومضى على سبيله نحو الكوفة فلقيه عبدالله بن وديعة الأنصاري فسأله الإمام (عليه السلام) قائلاً ماذا سمعت من الناس يقولون في أمرنا؟ قال: يا أمير المؤمنين منهم المعجب به ومنهم الكاره له إلاّ أن لا ذوي الرأي يقولون: ان عليّاً كان له جمع عظم ففرقه وحصن حصين فهدمه، فمتى يبنى مثلما هدم؟ ومتى يجمع مثلما فرق! فلو انه كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه من عصاه فقاتل حتى يظهره الله أو يهلك كان ذلك هو الحزم فقال الإمام (عليه السلام): أأنا هدمت أم هم هدموا؟ وأنا فرقت أم هم فرقوا ، وأما قولهم: لو انه مضى بمن أطاعه أو عصاه من عصاه.. فوالله لقد كنت سخي النفس بالدنيا.. طيب النفس بالموت ولقد هممت بالاقدام فنظرت هذين وهما بجانبي يعني بهما (الحسن والحسين (عليهما السلام)) فعلمت انهما ان هلكا في الحرب انقطع نسل محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلم) من هذه الدنيا، وأيم الله لئن لقيتم بعد يومي هذا وانهما ليسا معي في عسكر لبلغت فيهم مما يشاء الله ما أبلغ، ثم مضى بجيشه حتى مر على منازل بني عوف فإذا سبعة قبور أو ثمانية مسنمة وهي عن ايمانهم فقيل له ان خباب بن الأرث توفي بعد خروجك إلى صفين فأوصى أن يدفن في (الظهر) ههنا

فدفن الناس من حوله بعض موتاهم فترحم عليه الإمام ارق ترحم وأصدقه ثم انصرف حتى دخل سكة الثوريين الهمدانيين، فسمع نشيجاً وبكاء فقال: ما هذه الأصوات؟ فقيل له: هذا الكباء والنشيج على من قتل في صفين، ثم مر بالشباميين، فسمع رنة عالية، فتوقف رويداً عن المسير، فخرج إليه حارب بن شرحبيل الشبامي، فقال له عليّ (عليه السلام) أيغلبكم نساؤكم على العويل في دياركم؟ ألا تنهونهن عن هذا العويل بعد نزول القضاء؟ فقال : يا أمير المؤمنين لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثاً قدرنا على ذلك ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومئة رجل فليس من دار هاهنا إلاّ وفيها بكاء، أما نحن معاشر الرجال فلا نبكي ولكن نفرح بالشهادة ننالها بعين الله فقال عليّ (عليه السلام): رحم الله قتلاكم وموتاكم وانصرف يمشي معه وعلي راكب فقال له: يا حارب بن شرحبيل ارجع ووقف، ثم قال له مرة أخرى ارجع فإن المشي على هذا الغرار فتنة للوالي ومذلة للمؤمنين، ثم مضى حتى مر على الناعطيين فلقيه (عبد الله بن مرثد) فقال له مع نفسه: ما نصع عليّ شيئاً ذهب وعاد في غير شيء، فلما نظر إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) أبلس فقال عليّ (عليه السلام): وجوه قوم ما رأوا أحداث صفين وهم كما قال الشاعر:

أخوك الذي ان أجرضتك ملمة *** من الدهر لم يبرح اليتك واجما

وليس أخوك بالذي ان تمنعت *** عليك أمور ظل يلحاك لائما

وصرف وجهه نحو الكوفة، وأذن لمن شاء من أصحابه أن ينصرف إلى أهله فلينصرف فما أعظم عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) قائداً محنكاً للسلم فحينما استجاب في صفين إلى موافقة المنشقين من جيشه على ايقاف قتاله مع أهل الشام وأن يستقدم قائد جيشه (مالك الأشتر) في ميدان المعركة مغمداً سيفه

ص 177

تمهيداً لاعلان رضاه بالاحتكام إلى كتاب الله فيما يأمر به لايثار السلم بالحق بين أراهيط المتحاربين، كان الأشتر وقتذاك موشكاً على بلوغ الانتصار الحاسم على معاوية وأصحابه المارقين، ولكن المصادفة غير المتوقعة حالت دون تحيز ذلك الانتصار بهروع معاوية إلى رفع المصاحف وانشقاق جيش الإمام على الإمام نفسه من أجل وقف القتال والجنوح إلى المهادنة ريثما يروا ما يرى القرآن بشأنهم من قضاء.

ولقد فوجئ أمير المؤمنين بذلك الحدث الجديد فأمعن فيه البصيرة سريعاً لكي يستبط الحقيقة ما يبتغيه أولئك المنشقون حينذاك فأنجده هدوء ذهنه وشجاعة قلبه وحضور بديهته ونفوذ بصيرته الواعية إلى ارتجال ما تقتضيه عاقبة ذلك الحدث من الرشاد، فارتضى الاحتكام إلى القرآن العزيز ليكون ارتضاؤه بالاحتكام القرآني سنّة مأثورة واجبة الاتباع فيما يلي من مستأنف الأزمنة الإسلامية.

فلو كان قد جرد سيفه إذ ذاك على أولئك المنشقين من جيشه وهو مصر على استئناف القتال ضد أهل الشام لأبهج قلوب أعدائه ولقضى على كثير من رجال جيشه فيكون قد بدد بذلك ثروة عسكرية غالية هو في حاجة إليها أبلغ الحاجات. وليس من المستبعد كذلك ان ينجم من قيام فئة كبيرة كأولئك المنشقين نوع مقيد من التقدم الاجتماعي يرى فيه الناس بعد العسر يسرا بمشيئة الله ومن ذا الذي يستطيع ان ينفي ان معاوية كان لا يملك في دخيلة نفسه ان يوقع بالدولة الإسلامية كل وقيعة مضرة مستعيناً بمكائد قومه ومطامع أنصاره لو لم يكن قد ظفر أخيراً بحصة الثعلب مع عمرو بن العاص في نهاية أمر التحكيم ونهاية المخادعات في أسلوب التحكيم في (دومة الجندل) كما استفاد الناس لأنفسهم أن يتوقعوا حدوث العسر بعد

ص 178

اليسر ان هم تسرعوا بلا هوادة في عرض مشكلاتهم على غير الأناة والبصيرة المحنكة في مشارق الأرض أو مغاربها.

ما كان الإمام عليّ (عليه السلام) يدخل مدينة الكوفة عائداً إليها من وقعة صفين حتى سمع الناس يتناقلون في أرجائها أحاديث شتى عن رجال الخوارج وعما عندهم يومذاك من آراء مبتدعة في الشؤون الإسلامية وفي تقويم زعمائها، عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص فاستشف من أحاديث أولئك

الناس ان حيرة واستغراباً خالجاً عقائدهم، وانهم يخشون من جرائهما ان يقعوا في أزمات الفرقة العقائدية والتباغض الأجتماعي بينهم، فاستولى على مشاعره الهلع من ذلك حتى جعل إيمانه الراسخ يصرخ به لينهض ويستأصل من الصميم شأفة تلك الآراء الجديدة التي ابتدعها الخوارج قبلما هي تغشى أبعاضاً آخر من طوائف المسلمين، ولكنه أمعن في الأناة بعض الإمعان فارتأى أن يبدأ بتحذيرهم في أول الأمر من عواقب ما أنشأوا يذيعون بين أوساط المسلمين من اجتهادات مبتدعة وطارئة على ضمائرهم غريبة عن أصولها، وهم لم يتسالموا على اعتناقها واقتباسها من العلماء.

وزيادة على ذلك فإن الخوارج قد آثروا الابتعاد أعجب ابتعاد عن مدينة الكوفة منذ أيام رجوعهم من حوادث صفين حتى انهم تحاشوا دخولها والإقامة في منازلها فضلاً عن نشوزهم على أداء الصلوات في مساجدها وهذه الأحداث المبتدعة أفضت إلي التوكيد على مروقهم النفسي عن التمسك بمحاسن التجمع السياسي والتظافر العسكري والإجتماعي بين المسلمين.

فأرتأى الإمام (عليه السلام) ان يبعث رجالاً من شيوخ أصحابه يتوسطون لحملهم على العودة إلى مدينة الكوفة فرفضوا الاستجابة لوساطتهم بلا هوادة ولا استبصار فماذا فعل الإمام (عليه السلام) بعد ذلك؟

لقد واضب على تكثيف إرشادهم وتحذيرهم من عقبى ما كانوا يبتدعونه من سوانح مبتكرة يضفونها إلى نصوص الأعمال الدينية الأصلية من غير حذر، مصرين على سابق عنادهم والكنود أيضاً ضاعفوا من ابتعادهم بمسافة أخرى عن أطراف الكوفة ليخلو أمامهم فضاء التوسع أكثر فأكثر فيبتدعون ويسرقون فاضطر الإمام أن ينطلق فيحشد نحوهم فريقاً من رجال جيشه لافنائهم على جواهر الدين الحنيف من نفوذهم إليها.

وكان أولئك الفريق من الجيش على أشد حالات الاستغراب والاستفزاز مما كان يمارسه أولئك المنشقون من عبادات التدين الدعائية بل يحذرون أندادهم وأصفياءهم من الاصغار إلى أساليب عبادات أولئك لئلا يبدأ من هناك تدخلهم أو تسللهم إلى ما وراء أساليبهم في العبادة الإسلامية المحققة خرج الإمام(عليه السلام) بجيشه الصريح المؤمن إلى حرب الخوارج للقضاء عليهم وعلى ما عندهم من أساليب العبادة المبتكرة، وكان عدد أولئك الخوارج إذ ذاك أربعة آلاف أو أكثر بقليل مجتمعين بقرب (مياه النهروان) فأمر الإمام (عليه السلام) قائداً من قواد جيشه أن يركز رايته الكبرى أمام أولئك الخارجين، ثم شرع يفضي إليهم بما ينفعهم من وعظ وإرشاد وبما يحسم ذنوبهم المتكاثفة عليهم من جراء خروجهم عليه ومن ارتيابهم فيما يحمله الإمام من إيمان دقيق ثم أتاح لهم فرصة كريمة لاعلان ندمهمعلى ما فرط منهم من شذوذ عن جواهر الدين الحنيف ثم انتظر

حتى ارتدع منهم كثيرون وعادوا نادمين إلى مدينة الكوفة وبقي أربعة آلاف خارجي معاندين ولم يرجعوا مع أولئك وإذا بأمير المؤمنين يوعز إلى رجال جيشه بالهجوم دفعة واحدة عليهم فلم يتركوا منهم احياء إلاّ تسعة أشخاص أنقذهم الفرار السريع نحو الكوفة في حين ان القتلى من جيش الإمام لم يتجاوز التسعة أشخاص أنقذهم ليس غير.

ص 180

ثم رجع الإمام (عليه السلام) إلى الكوفة منتصراً في النهروان على أولئك الخوارج على ما في ضمائرهم من أواشاب منحرفة عن ثلة عزيرة من مناحي شريعة الإسلام وكان ذهابه إلى هناك قاصداً قصد المصلحين المسؤولين مخافة أن يستدرجوا إليهم ناساً آخرين من سادري المسلمين في الكوفة خلال صفحة عنهم ولكن القوة النزيهة المسعفة غير المنظورة قد تطرأ على حين غرة طرؤا كالطبيعي سواء أكانت في مدينة الكوفة أم غيرها فتسند شريعة أو مبادئ إجتماعية مفيدة توشك أن تصاب بضرر فتدفع عنها ذلك الضرر لتستعيد أفادتها للمجتمع من جديد، وهكذا كان أمر الإمام عليّ (عليه السلام) بشجاعته وحكمته في الكوفة والنهروان حذو الواقع بالواقع فتستروا أو تساتروا بأنشطتهم عن العيان مخافة أن يكون مصيرهم كمصير أقرانهم في النهروان من قتل ماحق فأصابهم الذهوب والاكتئاب وبدأوا بتوسيع مناشط أعمالهم حيثما يتنقلون من مدينة إلى مدينة ويتصلون بجماعة اثر جماعة من سائر المسلمين ولعل المجرم (عبد الرحمن بن ملجم) الذي اغتال الإمام عليّ بن أبي طالب في محرابه داخل مدينة الكوفة ليلة التاسع عشر من شهر رمضان سنة 40 هجرية كان أحد أولئك الخوارج المتسترين عن التظاهر للعيان وقد استغل معاوية بن أبي سفيان عداءه للإمام عليّ (عليه السلام) فأغراه بتيسير مقتله في ليلة عامة من أواخر ليالي شهر رمضان المهمة وأتاح له التمهيد لاغتياله وسبيل هربه من المسجد إلاّ انه قبض عليه وتم قتله.

ولكن، ما لنا الآن وللحديث مفصلاً عن (عبد الرحمن بن ملجم في الكوفة) فلنعد الآن إلى مواصلة الحديث عن معاشر الخوارج وعن زعماء حزبهم في خارج الكوفة بعد مقاتل أندادهم في موقعة النهروان ولقد كان الخوارج في أوائل أمرهم قبل تعريفهم بهذا الاسم ناساً صالحين ومخلصين

ص 181

للإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) سواء أكان في خلال موقعة الجمل أم في خلال حرب صفين وقد انخدعوا بظاهرة رفع المصاحف على الرماح مطالبين جيش الإمام (عليه السلام) بايقاف القتال مع أهل الشام والاحتكام إلى ما يفرضه عليهم كتاب الله العزيز فانطلقوا مهرعين نحو الإمام (عليه السلام) طالبين منه ايقاف

القتال مع أهل الشام فوراً فنصحهم باستمراره مبشراً إياهم بالفتح القريب إلاّ انهم أصروا أشد أصرار على ايقافه واستدعاء قادة جيشه من الميادين أو اقدامهم على قتله كما قتلوا من قبل (عثمان بن عفان) فمال ميلان الاضطرار نحو ايقاف القتال واستدعاء قادة الجيش إليه بعد تفاقهم أخلاق الخوارج عليه واشتداد وقاحتهم بتهديدهم إياه بالقتل ولما أن حضر قادة امامه كان يملك حينئذٍ اسكات أصوات المنشقين عليه بسيوف أولئك القادة ولكنه لم يشأ أن يفعل ذلك قط لأنه كان بذلك يبهج أفئدة أعدائه فضلا عن انه كان يقضي على كثير من رجال جيشه في حربه القائمة وزيادة على ذلك فإنه مال بحكمته الواسعة إلى اخماد نزوة فجة من نزوات الاصرار على مطلب لم يستغرق الاستيطان والتدبير الطويل فأراد أن يضرب لهم بذلك مثلاً يجد بهم نفعه في مستقبل أيامهم السليمة أو الحربية أو غيرهما.

ولما انتهى مؤتمر التحكيم في دمة الجندل بانخداع أبي موسى الأشعري نائباً عن أهل العراق وبانتصار عمرو بن العاص نائباً عن أهل الشام أدرك الناس على اختلاف مداركهم حكمة الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ضرورة الامعان واستيطان القضايا الغامضة قبل الاقدام على اقتحامها وممارستها . كان للخوارج أساليهم الخاصة بهم في القناعة المعيشية وفي الزهادة عما في أيدي الناس من مقومات الحياة اليومية ومن ممتلكات عقارية وغير عقارية حتى كاد التقشف الشديد يستغرقهم بالجملة

والتفصيل وكان فهمهم للقضايا الدينية وشروحها واسع الشمول حتى لقد كان أبعاض من زعمائهم وقادة مذهبهم يتطرقون كثيراً في بيان آرائهم واجتهاداتهم الدينية بحيث يرتكبون أشد الاغراق الشذوذ فيها ، أي انهم لم يلتفتوا إلى سابق تحذير النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين من الاغراق مثلهم في فهم الأوامر الإسلامية ونواهيها فيتحمل كثيراً منهم مع تعاقب الزمن على التخلي عن إيثارهم الدين في الدنيا لانحرافه عن تأمين استجمامهم وتوفير المنافع الإجتماعية وغير الإجتماعية لهم فيها ولذلك فقد تضاءل عدد الخوارج من يومذاك إلى ما بعده من أرض المجتمع الإسلامي حتى انقرضوا من فوقها آخر انفراض. وأما أشهر زعماء مذهبهم في العراق وفيما وراء العراق فكانوا الذين نذكر أسمائهم فيما يلي هنا من استطراد:

1 – نجدة بن عويمر الحنفي: كان هذا رئيساً مقدماً من رؤسائهم في العراق وفي مكة وكان قدوة لكثير منهم في مذهبهم، وله آراء اجتهادية وضعها لهم يسلكون عليها إذ ذاك، وجدير بالذكر انه كان يصلي مع عبد الله بن الزبير جنباً إلى جنب في مكة أيام الجمعة عندما كان عبد الله بن الزبير يسعى إلى كسب الخلافة لنفسه، بينما كان نجدة بن عمير يسعى كذلك إلى كسبها لنفسها ثم استطاع نجدة بن عمير أن يغزو اليمامية ويسيطر عليها

بمعونة أنصاره ولما اشتد ساعده في السيطرة على تمامها غزا بلاد اليمن وعمان والبحرين والطائف وأصقاع أخر من أراضي بني تميم وبني عامر وفي خلال تلك الأيام أفتى لأنصاره (بأن المخطئ منهم بعد بذله غاية الاجتهاد معذور) وان الذين لا يعدو في جوهره معرفة الله ورسوله حتى تقوم الحجة على الأخذ بأكثر من ذلك وان الذي يستحيل شيئاً لم يقتنع بحرمته من طريق الاجتهاد فمعذور مع بقاء إيمانه الديني تاماً وقائماً كسائر المؤمنين، ولذلك كله أجمعوا أمرهم

ص 183

على تنحيته عن رئاستهم لاختيار (أبي فديك القيسي) بديلاً عنه في منصبه وقد أقدم أبو فديك القيسي على اغتيال نجدة بن عويمر ليخلو له منصب الرئاسة دون سواه إلاّ ان فريقاً من أصحاب نجدة بن عويمر ارتدوا في دخائلهم نادمين على ما حدث وزعموا بانه قتل مظلوماً لأنه قد بذل ما وسعه من اجتهاد في أيام حياته.

2 – حوثرة الأسدي: وهذا كان شيخاً ذا بأس عسكري شديد ويتمتع بقسط مرموق من فقه الخوارج وكان لا ينفك بأمر أصحابه بالوعاية وتثمين مواهب الحذر وبالتأهب للقضاء على سلطان معاوية الذي يزاحم الدين الحنيف.

ولما حان الحين واستتب زمان خروجه على سلطان معاوية خرج عليه مع أنصاره بالقض والقضيض إلاّ ان معاوية سرعان ما استنصر بجيش متوافر من أهل الكوفة مزود بأقوى سلاح متنوع عند زياد بن أبيه في الكوفة، ولما التقى حوثرة الأسدي بجيشه الخارجي وجهاً لوجه مع جيش أعدائه وجد انهم جميعاً من أهل الكوفة فقال يخاطبهم:

يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتدمير سلطانه وأنتم اليوم تقاتلون معه كي تشدوا سلطانه فماذا دعاكم إلى ارتكاب هذا التناقض العجاب؟ ولما التحمت الفئتان حرباً قتل حوثرة الأسدي على يد فارس من فرسان بني طي فتفرقت جموعه بين هارب وجريح وقتيل من جراء غفلته عن التثبت سلفاً من كون جيش الكوفة سوف يساعف معاوية في الحرب من غير مراء.

3 – نافع بن الأزرق الحنفي: كان هذا الفقيه الخارجي يزعم لدى أنصاره (الأزارقة) بأنه لا يجوز للخوارج مساكنة غير الخوارج ومؤاكلتهم ومزاوجتهم وموارثتهم في أي زمان ومكان، ولا ينبغي لهم أن يستجيبوا

ص 184

إلى غيرهم لأداء الصلاة بالحث والاستمالة والاستدراج وان التقية احتياطية والإجتماعية من أجل ضمان السلامة الموجودة عند الناس لا تجوز لأنها مداهنة ومواربة لغرض الوصول إلى فائدة من وراء التمويه

والتخفي وأيضاً كان يقول بأن إقامتهم في أرض لغير الخوارج تجعلهم بمنزلة الكفار أيام الجاهلية تقضي بهم إلى نار السعير ما لم يؤكدوا إيمانهم للعيان ويخرجوا عنها أو يصرحوا بأنفسهم من غير مخافة ومواربة فيها.

4 – عروة بن حدير الربعي: وكان يعرف كذلك بعروة بن أدية وادية جده له جاهلية، وهو أول من حكم (بهتاف الخوارج) المعروف في صفين. ولما عاد من صفين إلى البصرة صار له فيها أصحاب وأتباع فأعلن مناوأته لمعاوية بن أبي سفيان ويستعرض مساواه المؤكدة فأخذه عبيد الله بن زياد فقتله وصلب جثمانه في مقبرة بني حصن بالبصرة وكان له عقب من الخوارج.

5 – شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني: وكان هذا زعيماً متطرفاً جداً في ارائه وفتاواه فكان مثلاً لا يحجم دائماً عن التوكيد على قتل الأطفال من ذرية المسلمين مستنداً في تبرير ذلك إلى فحوى قوله تعالى عن لسان النبي نوح (عليه السلام) : (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفارا) وكان ملازماً في حله وترحاله لصالح بن مسرح زعيم الطائفة الصفرية فلما توفي (صالح) في الموصل أوصى شبيب بن يزيد لكي يحل محله ويستأنف زعامته للصفرية وقبر صالح بن مسرح هناك.

ولما اشتد ساعد شبيب بن يزيد في أصقاع الموصل بعث إليه الحجاج

بن يوسف الثقفي جيشاً يقوده خمسة قواد فلما التقوا شبيباً قتلهم واحداً بعد الآخر ودحر جيشهم وفيه موسى بن طلحة بن عبيد الله فخرج الحجاج يومذاك من البصرة ليلقى (شبيباً) في الكوفة قبل أن يأتي فيستولى عليها فسمع شبيب بذلك فخرج إليه من الموصل إلاّ ان الحجاج أقحم خيله في النهر ودخل الكوفة قبل دخول شبيب فيها وجدير بالذكر ان شبيباً صادف في طريقه عتاب بن ورقاء فقتله ولما سمع عبد الحرمن بن محمّد بن الأشعث باقترابه فر نحو الكوفة، وعندما وصل شبيب إلى الكوفة لم يشأ مقاتلة الحجاج فيها فعكف بأنصاره نحو الأهواز فغرق في نهر دجيل خلال عبوره منه لثقل ما كان عليه من سلاح لم يطق حصانه أن يحمله عند العبور فقال وهو يائس من نجاته (ذلك تقدير العزيز الحكيم).

وكان لشبيب هذا قريب فارس من عشيرته اسمه الوليد بن طريف الشيباني وكان خارجياً مثله وقد تزعم عصبة اجرامية تمارس جرائم القتل والسلب والنهب في زمن هارون الرشيد فأمر هارون الرشيد بالقضاء عليه واراحة الناس من جرائمه ومساوئ أعماله فكانت اخته لا تنكف تنعاه وترثيه بأبيات منها:

أيا شجر الخابور مالك مورقا*** كانك لم تجزع على ابن طريف

6 – مرداس بن عمرو بن حدير الربعي: وكان زعيماً جم التدين بين جميع الحروريين وهم يعظمونه غاية التعظيم ولذلك أصبح زياد بن أبيه ينظر إليه حاقداً ويتوجس كثيراً من وجوده في الكوفة فأرسل إليه عباد بن علقمة المازني فقتله وقتل معه رجالاً من أنصاره المتدينين فرثاه عمران بن حطان الخارجي شعراً فقال:

انكرت بعدك من قد كنت أعرفه *** ماالناس بعدك يامرداس بالناس

7 – المستورد بن سعد التميمي: وكان هذا الخارجي الأديب زعيماً جم الشجاعة وله مشاركة في ملاحم صفين قبل انشقاقه مع المنشقين على أمير المؤمنين (عليه السلام) ولما عاد مع العائدين إلى الكوفة بقي يناوئ سلطان المغيرة بن شعبة حين كان والياً لمعاوية بن أبي سفيان فيها فأرسل إليه المغيرة معقل بن قيس الرياحي مع ثلة من الجيش لقتله وكان المستورد التميمي يتحاشى أن يريق دم الأبرياء من سائر الناس فعرض على معقل بن قيس قبل ابتداء المعركة أن يبرز إليه وحده ولابد لأحدهما أن يقتل صاحبه ولا يريقان دماء الأبرياء بينهما فوافق معقل بن قيس على ذلك ولما تبارزا اختلفا ضربتين أصاب كل واحد منهما فقتل صاحبه ثم انصرف الجيشان جميعاً وكان المستورد بن سعد أديباً حصيفاً كاد أن يكون متخصصاً في أدب حفظ الأسرار في المجتمع.

8 – قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي: كانا رجلين عابدين وراسخين في العلوم الإسلامية في البصرة فاتفاق معاً بعد رجوعهما من حوادث صفين على أن يخرجا للقضاء على أدعياء الإسلام ممن لا يضطلعون حقاً وصدقاً بالمطالب العبادية فإنما يقصرون اضطلاعهم على ممارسة الأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ليس غير.

وشرعا يعترضان الناس في سبيلهما فلقيا رجلاً شيخاً من بني ضبيعة اسمه رؤية الضبعي فقتلاه فغضب الناس وتنادوا من أجل التحذير منهما صارخين الخوارج... الحرورية.. الخوارج الحرورية فزعما بأنهما ليسا من الحرورية انما هما من شرطة الأمير ثم ان الناس تحققوا بعد ذلك انهما كانا من الحرورية وانهما لا يتحاشان من قتل المسلمين غير الحرورية في أي زمان ومكان فعلم أبو مرداس بن أديه بما أحدثا من جريمة فأضمر لهما في نفسه ما سوف يردعهما عن العدوان على الناس.

وصادف انهما مرا معاً على بيوت عليّ بن سود وهم من الأزد وكانوا مشهورين بحسن الرماية والتسديد فرموهما رمياً لابعادهما عن منازلهم حتى جعلوهما على حافة الهلاك فناديا: يا بني عليّ القيا، نحن لا رماء بيننا، فأجابهما رجل من بني عليّ بن سود:

لا شيء للقوم سوى السهام *** مشحوذة في غلس الظلام

فابتعدا كلاهما وجعلا طريقهما على مقبرة بني يشكر فأحاطت بهما رجال من بني طاحبة من بني سود ومزينة ومضر فقتلوهما ولم يبق لقريب الأزدي وزحاف الطائي إلاّ الذكر السيء الذميم.

9 – نجدة بن عامر: كان هذا الخارجي إنساناً معتدلاً في آرائه بالبصرة فهو لم يكن يسيغ انحرافاً عن سبيل مسلوك يؤدي إلى جريمة خلقية أو تفرقة اجتماعية أو ضرر جسمي وقد اختلف مع نافع بن الأزرق عميد الأزارقة في استحلاله الغدر بأمانة الذين يخالفونه بالرأي فكتب إليه نجدة بن عامر يلومه على ذلك ووصفه بأنه قد يجرد له الشيطان خاصة في قتله الأطفال وما إلى ذلك فانبرى له نافع الأزرق فأرسل له رسالة غاضبة ختمها بقوله: (والسلام على من اتبع الهدى) وفي أعقاب هذا التناقد بين نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق اندفع نافع بأصحابه عن بقية الخوارج وأقام بالأهواز معهم يجبي الخراج لنفسه ويقتل أطفال غير الخوارج فاضطرب الناس في الأهواز والبصرة ولجأوا إلى الأحنف بن قيس وبطوله ما يعانونه من أعمال نافع بن الأزرق وطلبوا منه أن يختار لهم أميراً يصون كبارهم وصغارهم من مساوئ الخوارج فانطلق الأحنف إلى عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو يومذاك أمير البصرة من قبل عبد الله بن الزبير وشرح له ما يقاسيه الناس من أعمال نافع بن الأزرق الإجرامية

فاختار لهم مسلم بن عبيس بن كريز أميراً عليهم فخرج بالرجال القادرين على حمل السلاح من البصرة ولما جاوز جسر البصرة جمعهم وخطب فيهم قائلاً:

أيها الناس إني ما خرجت بكم لاقتناء ذهب ولا فضة وإنما خرجت لا حارب قوماً معتدين لا يواجهوننا بغير السيوف والرماح فمن كان منكم من يريد الجهاد من أجل الاصلاح فليتبعنا ومن أراد غير ذلك فليرجع ، فرجع قليل منهم إلى البصرة وانطلق مع مسلم بن عيسى بن كريز أهل الصدق والثبات فلما بلغوا قرية دولاب خرج إليهم نافع بن الأزرق وأصحابه لقتال مسلم بن عبيس فوقف مسلم بن عبيس بين أصحابه واستخلف عليهم الربيع بن عمرو الأجذم الغداني اليربوعي إذا ما استشهد هو كما استخلف نافع بن الأزرق عبيد الله بن بشير

بن الماحوز السليطي اليربوعي على أصحابه إذا ما استشهد هو ولما دارت المعركة بينهما لم يتقهقر أحد منهم أمام الآخر فقتل مسلم بن عبيس ونافع بن الأزرق وبقي من بقي منهما يقاتل خصومه أكثر من عشرين يوماً. فقتل في أواخرها الربيع بن عمرو فاختار قومه الحجاج بن رباب الحميري رئيساً عليهم وأخذ الراية وقاتل حتى برز إليه عمران بن الحارث الراسبي فاختلفا ضربتين بينهما فوقعا صريعين على الأرض وعاد بقتلاهما إلى البصرة.

10 – الزبير بن عليّ السليطي التميمي: كان هذا الخارجي فارساً هماماً ومتديناً يقتدى به كثير من الخوارج في تيسير مهماتهم العسكرية وغير العسكرية حتى انهم كانوا يخاطبون بالامارة وكان محباً للتجوال بين المدن بين جنوب العراق فنزل ذات يوم مع أصحابه إلى البصرة مدججاً معهم بالسلاح فاضطرب أكثر الناس من نزولهم خوفاً مما كان

الخوارج يقومون به من احداث فتجمعوا لدى (الأحنف بن قيس) وأعربوا له عما بدأ يساورهم من طروّ الخوارج عليهم وكان أمير البصرة يومئذ الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بالقباع فانطلق الأحنف معهم إلى مقابلة القباع فأخبروه بما يساورهم من قلق فقال الأمير قباع اذكر لي رجلاً يلي الحرب عنكم فقال له الأحنف: إني لا أرى كفؤا غير (المهلب بن أبي صفرة) فقال الأمير : اذن (سأحسم أمركم في يوم غد) ولما حضر المهلب عند الأمير في اليوم التالي قال له: يا أبا سعيد انك لترى ما خامر الناس من طروء هذا العدو على البصرة وقد أجمعوا على اختيارك مطمئناً لقلوبهم وقال له الأحنف: يا أبا سعيد ما أراك تفرط في اختيار الناس اياك فقال المهلب: لا حول ولا قوة إلاّ بالله إني عند نفسي دون ما تشاؤن ولست أرفض ما طلبتموه مني ولكن لي شروطاً اشترطها قالوا: وما هي؟ فقال: إن لي اختيار من أحب وإن لي الأمرة على كل بلد أحتويه وإن لي فيئ كل بلد أظفر به فقال له الأحنف: أما الفيئ فليس لنا استغلال تمامه لأنه هو فيئ للمسلمين، ولكن لك أن تعطي منه لأصحابك ما يستحقون وما أنت تفتقر إليه لمقتضيات الحرب، فقال المهلب قد قبلت ثم كتبوا بينهم كتاباً بذلك كله وأشهدوه الصلت بن حريث بن جابر الجعفي إذ كان حاضراً وقتذاك معهم ثم انصرف المهلب بن أبي صفرة واختار من جنود الأخماس ما بلغ عددهم اثني عشر ألفاً فألبسهم خواتين بيض فوق دروعهم تميزاً عن سواهم من جنود وزودهم بكامل ما يحتاجون إليه من سلاح بينما كان الخوارج يراقبون بحذر جميع مساغيه من بعيد

وما كاد ينهي أشغاله كلها حتى أمرهم بالتوجه في البدء نحو النهر، فبرز لهم الخوارج فأمر المهلب بتحية جموعهم ريثما يعقد الجسر لعبورهم إلى الضفة الأخرى.

فأمر المغيرة بن المهلب بالامتناع عن متابعتهم وفي ذلك يقول شاعر من الأزد:

ان العراق وأهله لم يخبروا *** مثل المهلب في الحروب فسلموا

أمضى وأيمن في اللقاء نقيبة *** وأقل تهليلاً إذا ما أحجموا

وقد شارك في هذه الوقعة الوجيزة عطية بن عمرو العنبري وهو فارس من فرسان بني تميم وكان صديقاً للمغيرة بن المهلب ثم لبث المهلب يتنقل بين قرى ومدائن دجلة زهاء أربعين ليلة يجبي الخراج بينما كان الخوارج على نهر (تيرى) لا يملكون هجوماً على المهلب فيتقدم المهلب على نهر (تيرى) فتقهقر عنه الخوارج إلى الأهواز وبقي المهلب حينذاك يستميل إليه الفرسان غير الخوارج حتى بلغ عددهم عشرين مقاتل وثابر المهلب يتنقل بين أصقاع الأهواز تاركاً المعارك بين أبي صفرة مسرفاً على رجال معسكره وتاركاً المغيرة بن أبي صفرة طليعة له أمام جيشه فالتقى المغيرة الخوارج فواقعهم مع جيشه يوماً وليلة وهو صامد راسخ الفوائد.

وفي صباح اليوم التالي انتظم جيش المغيرة مجتمعاً فلم يجد جيش الخوارج في حينما كان فكتب المهلب إلى القباع أي الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة قائلاً في رسالته: أما بعد فانا لقينا الأزارقة بحد وجد فكانت في الناس ثم تاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شذاذ وسيوف حداد فأعقب الله خير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا دريئة رماحنا

وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم (ابن ماحور) وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام.

فأجابه القباع بما يلي:

قد قرأت كتابك يا أخا الأزد فرأبتك قد وهب لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك – ان شاء الله – ثواب الآخرة وأجرها ورايتك أوثق حصون المسلمين، وهاد أركان المشركين وذا الرياسة وأخا السياسة ، فاستدم الله بشكره يتمم عليك نعمه – والسلام(39).

وكتب إليه أهل البصرة ليهنئونه على انتصاراته المتلاحقة وأما الأحنف بن قيس فهنأه شفوية مع رسول مخصوص أما الخوارج فاجتمعوا يقضهم وقضيضهم في (ارجان) فبايعوا الزبير بن عليّ – وهو فارس همام من بني سليط بن يربوع من قبيلة (ابن الماحور) ولما استعرضهم وجد فيهم ضعفاً ظاهراً وشيئاً من الانكماش

عن الرغبة في الحرب ، فجمعهم أول مرة ليكون على بينة من بواطنهم وقال لهم: يا أنصار الله ان البلاء للمؤمن تمحيص وأجر وهو على الكافرين عقوبة وخزي وأن ينزل بأمير المؤمنين شيء يؤلمه فالذي صار إليه خير مما خلف وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس، وربيعا بن الأجزم ، والحجاج بن رباب، وحارثة بن بدر.

وأما الذي أصاب قلب المهلب من جراء مقتل أخيه المعارك بن أبي صفرة فهو أشد ما يمكن ان يلقاه في حياته وزيادة على ذلك فإن الذي لقيه المهلب من (يوم سولاق) فهو يضاهي ما لقيتموه في يوم (سلي) واعلموا بأن المهلب وأعوانه ليسوا إلاّ صغاراً عند الله، وانكم المستخلفون في الأرض.

ثم أكمن مئة فارس لقتل المهلب في مخبئ على طريق (مروة) المعهود

ولكن المهلب كشف ما أضمره له أعداءه وفي ذلك اليوم قتل (الزبير بن عليّ) ثم برز (قيس الأكاف) وهو أمهر فرسان الخوارج ونادى (الحارث بن هلال) أن يبرز إليه فما عتم الحارث أن يبرز إليه فقتله على مشهد من الخوارج فأضعف بذلك من شوكتهم وقدرتهم وبقى المهلب مستمراً على خضد الخوارج جهد طاقته خلال ولاية الحارث القباع حتى عزل وتولى مكانه مصعب بن الزبير فكتب إلى المهلب لا انه يقدم إليه مستخلفاً ابنه المغيرة في مكانه ففعل وانصرف إلى مصعب بن الزبير استجابة لأمره وفيما كان المهلب في طريقه إلى مصعب كتب مصعب إلى المغيرة بن المهلب بتوليته مكان أبيه قائلاً : انك ان لم تكن مثل أبيك فانك كاف لما وليت فشمر وائتزر، وجد واجتهد.

ثم ذهب مصعب بن الزبير إلى المزار بين واسط والبصرة فقتل أحمر بن شميط ثم اتجه الى الكوفة فقتل المختار بن أبي عبيد.

ولما قتل الزبير بن عليّ قائد جيوش الخوارج في الميدان أمر عتاب بن ورقاء قائد جيوش المسلمين أن لا يتبعوا الخوارج في أعقاب هزيمتهم ليبتعدوا ويستعرضوا بينهم أسماء قتلاهم وما نزل بهم من بلاء واذلال.

أما الخوارج فقد اجتمعوا فيما بينهم وهي في أشدها حالات الأسف على قتلاهم وخصوصاً على زعيمهم الزبير بن عليّ فارتأوا أن يختاروا زعيماً يتولى أمورهم فأجمعوا أمرهم على اختيار قطري بن الفجاءة المازني فبايعون ونادوا به أمير المؤمنين فيما بينهم. ولما تمت مباعيته وعلم ان أعداءه على مقربة منه وانه هو أول أهداف أعدائه حينذاك أمر أصحابه بالانتقال إلى الأهواز ولما وجدوا أنفسهم في الأهواز معرضين لمخاطر شتى انتقلوا الي قرية ابذاح ومنها مباروا إلى كرمان ثم إلى (رامهرمز) فبلغهم يومذاك مقتل مصب في مدينة (مسكن) فاستبشروا بمقتله فاجتمعوا

بأسرهم أمام المسلمين وعلى رأسهم المهلب فناداهم أحد الخوارج ما تقولون في مصعب فلم يجيبوه ثم قال: فما تقولون في عبد الملك؟ قالوا: انه إمام هدى فقال لهم الخارجي: يا أعداء الله انكم نبذتموه أمس بأنه ضال مضل فكيف صار اليوم إمام هدى؟

ولقد كانت الخوارج وأعداؤهم في خلال تلك الأيام إذا ما كفوا عن القتال يتواقفون ويتساءلون عن أمور دينية فيتجاوبون على اطمئنان وبصراحة أمينة حتى ان عبيدة بن هلال الشكري سأل أبا حزابة التميمي وهو من أشباع الدولة الأموية فقال عبيدة بن هلال لأبي حزابة إني أسألك عن أشياء فهل تجيبني عنها بصراحة؟ قال: نعم ان ضمنت لي مثل ذلك قال : نعم قد فعلت فاسأل عما بدا لك.

قال: ما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام، قال ويحك كيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حله وينفقونه من غير وجهه قال فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه ماله، ويمنعونه حقه، وينكحون أمه. قال: ويحك يا أبا حزابة أمثل هؤلاء تتبع؟ قال: مالك وهذا الأمر إني قد جئتك فاسمع سؤالي ودع عتابي على رأيي، قال: أي الخمر طيب خمر السهل أم خمر الجبل قال: ويحك أمثلي يسأل عن هذا؟ قال: قد أوجبت على نفسك أن تجيب، قال: أما إذا أبيت فإن خمر الجبل أقوى وأسكروخمر السل أحسن وأسلس. قال: فأي الزواني أفره؟ أزواني رامهرمر أم زواني أرجان؟ ويحك ان مثلي لا يسال عن هذا. قال: لابد من الجواب أو تعذر. قال أما إذا أبيت فزواني رامهرمز أرقا ايثاراً وزواني أوجان أحسن أبداناً قال فأي الرجلين أشعر جرير أم الفرزدق قال: عليك وعليهما لعنة الله قال: لابد أن تجيب قال أيهما الذي قال:

وطوى الطراد مع العباد بطونها *** طي النجار بحضرموت برودا

قال جرير فهو أشعرهما(40).

وروى (أبو الفرج) ان امرأة من الخوارج كانت قطرى بن الفجاءة يقال لها ام حكيم، وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم في الحرب وأحسنهم بالدين تمسكاً وخطبها جماعة منهم خوارج فردتهم ولم تجبهم فأخبر من شاهدها في الحرب انها كانت تحمل على الناس الأعداء وترتجز فتقول:

احمل رأساً قد سئمت حمله *** وقد مللت دهنه وغسله

الا فتى يحمل عني ثقله(41)

وروى أبو الفرج نفسه في كتاب الأغاني قال:

كان عبيدة بن هلال إذا توقف الناس وتكافؤ عن القتال نادى: ليخرج إليَّ بعضكم فيخرج إليه فتيان من عسكر المهلب بن أبي صفرة فيقول لهم: أيما أحب إليكم؟ أقرأ عليهم القرآن أم أنشدكم الشعر؟ فيقولون له: أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك، ولكن تنشدنا الشعر، فيقول: يا فسقة قد والله علمت انكم تختارون الشعر على القرآن ثم ما يزال ينشدهم حتى يملوا ويفترقوا(42).

وهكذا كان الخوارج في بواطنهم، ولم يكونوا في واقعهم كما كانوا

ص 195

لن يقاربوا أدنى مداحض الشيطان ولا أقل مزالق الفاسقين سواء أكان في أيام السلم أم في أيام الحرب، ولعل من أعجب العجائب ان نرى أبعاضاً من المسلمين يؤمنون (بمزاعمهم) في السر والعلن من غير تعمق ولا استحياء.

*** تم بعونه تعالى ***

الهوامش

1 - حرب الجمل وحرب صفين:186 ، 187، 188 تاليف السيد محسن الأميني.

2 و 3 - حرب الجمل وحرب صفين:194،193،191،190 تاليف السيد محسن الأميني العاملي.

4 - حرب صفين: 187، 189 تاليف السيد محسن الأمين العاملي.

5 - كتاب رجال حول الرسول تأليف الاستاذ خالد محمّد خالد ص 211.

6 - حرب صفين: 181، 182 تاليف السيد محسن الأمين العاملي.

7 - حرب صفين: 183، 184 تاليف السيد محسن الأمين العاملي.

8 - حرب صفين: 178، 198 تاليف السيد محسن الأمين العاملي.

9 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 195.

10 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 197.

11 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 199 - 200.

12 شرح نهج البلاغة ج5 ص199 - 200، تحقيق محمد أبو الفضل.

13 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 204.

14 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 206 - 207.

15 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :213.

16 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 263 - 264.

17 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :218 - 219.

18 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :218 - 219.

19 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 : 229.

20 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :218 - 219.

21 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :231.

22 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :233.

23 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :238.

24 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :243.

25 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :249 - 250.

26 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :251 - 252.

27 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :256.

28 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 5 :258.

29 - حرب صفين : 228 تأليف السيد محسن الأمين الحسيني العاملي.

30 - حرب صفين : 230 للسيد محسن الأمين العاملي.

31 - حرب صفين : 230 - 231 للسيد محسن الأمين العاملي.

32 - حرب صفين : 232 ، 234، 235، 236.

33 - حرب صفين : 231 - 232 للسيد محسن الأمين العاملي.

34 و 35 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 3 :315 - 316.

36 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 3 :315 - 316.

37 - حرب صفين : 251 - 252 للسيد محسن الأمين العاملي.

38 - حرب صفين: 250، 251، 252 للسيد محسن الأمين العاملي.

39 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 4 : 155 - 156.

40 - شرح نهج البلاغة تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم 2 :169 - 170.

41 - كتاب الأغاني 9 : 151 ط الدار.

42 - كتاب الأغاني 6: 161 ط الدار.

****